أبو الحسن الندوى





مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فهذه المحاضرات التى يجدها القارىء فى هذه المجموعة كتبت والقيت فى مناسبات مختلفة ، تختلف فى الزمان والمكان ، والعنوان والألوان ، وتجتمع فى غاية واحدة وهى : ايقاظ الشعور الدينى فى المسلمين ، واعادة الثقة الى نفوسهم بمركزهم ومبدئهم وغايتهم فى الحياة ورسالتهم للعالم البشرى ، وتهيئة النفوس لحمل هذه الرسالة وتبوء مركز القيادة والامامة للعالم الحائر الثائر ، وتجديف سفينة الحياة الضائعة بين الملاحين العابثين والركاب النائمين .

وقد خوطبت فى هذه المحاضرات والمقالات الأمة الاسلامية بصفة عامة ، اذ هى الأمة الأخيرة التى اخرجت للناس ، وصاحبة الرسالة الأخيرة التى وجهت الى الناس ، وعنيت بها الأمة العربية بصفة خاصة ، فمن أفقها طلعت شمس الاسلام فى العصر الأول وأسفر الصبح الصادق ، وقد أسكنها الله فى خير مركز فى العالم لتوجيه الدعوة الاسلامية ، وازجاء الرسالة الاسلامية الى الأمم المتحضرة والعالم المتمدن ، وتبوء مكان القيادة العالمية .

ولما كانت هذه المحاضرات كتبت فى ظروف مختلفة كنت أشك فى وجود وحدة تربط بينها ، لذلك لما اقترح على نشر هذه الرسائل فى مجموعة ترددت بعض الزمن فى اجابة هذا الطلب ، ونظرت فيها من جديد فاذا بوحدة تجمع بينها وغاية تشترك فيها وهى : الدعوة

الى الاسلام من جديد ، فقبلت هذا الاقتراح وجمعتها فى مجموعة أسميتها ((الى الاسلام من جديد)) وأدعو الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها القراء ، وأن يحرك بها سواكن القلوب ، ويحيى بها موات النفوس ، انه على كل شىء قدير .

ابو الحسن على الحسنى الندوى

نزيل القاهرة

١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م



الى ممثلى البلاد الاسلامية

عرجت على المؤتمر الثقافى (١) العام ، الذى قد اشترك فيه ممثلو البلاد وبعثات الأمم ووفود النوادى ، فرايت معرضا للجنسيات والوطنيات والحضارات ، ورأيتكم أيها السادة المسلمون شامة بين الناس ، لا لأنكم تمتازون عن زملائكم فى الشارة واللباس **بل لأنكم تمثلون تلك الأمة العظيمة التى كانت ولا تزال شامة بين الأمم** .

كان العالم قبل ثلاثة عشر قرنا سائرا سيره الطبيعى لا ينكر من أمره شىء ، فكانت القرى والمدن عامرة بالسكان ، وكانت العواصم الكبرى زاخرة العمران ، شامخة البنيان ، وكانت الحرف البشرية ووجوه المعاش فى ازدهار وانتشار ، كانت الزراعة وكانت التجارة وكانت الصناعة ، فبينما كانت سكة الفلاح فى شغل ونشاط كانت القوافل التجارية غادية رائحة بين الشرق والغرب ، وكانت الأسواق مشحونة بالمتاجر والبضائع ، وكان الصناعون مكبين على أعمالهم . وكانت الحكومات والامارات والدول غنية بأموالها ورجالها ، لكل وظيفة رجل كفؤ بل رجال إكفاء ، وكان على وجه الأرض كل نوع من البشر ، وكل لون من الحياة ، وكل مظهر من مظاهر المدنية ، لا يرى فى الحياة الانسانية المادية عوز أو فراغ . ولم تكن فى المدينة وظيفة شاغرة يترشح لها مترشح جديد ، وكانت كأس الحياة مترعة لا تطلب المزيد .

---

(١) المؤتمر الثقافى الآسيوى الذى عقد فى دهلى فى أبريل ١٩٤٧ م ، واشترك فيه ممثلو : مصر ، ولبنان ، وأفغانستان ، وايران ، وتركيا وأندونيسيا من الاقطار الاسلامية .

فى هذه الحال ظهرت أمة فى جزيرة العرب ووجد نوع جديد من البشر ، وكأنى بالأمم المعاصرة وهى تتسائل : اى داع الى ظهور امة جديدة والأمم على وجه الأرض كثيرة منتشرة ، وما شغل هذه الأمة الحديثة ، وما مهمتها فى العالم ؟

وكأنى بها تقول : اذا كانت هذه الأمة انما بعثت للزراعة وعمارة الأرض فقد كان فى فلاحى الطائف ، وأكارى مدينة يثرب ، وزراع وادى الفرات والنيل وربوع الكنج وجمنا ، غنى عن أمة زراعية جديدة ، فقد اصبحت اراضى هؤلاء الفلاحين وبلادهم جنة تدر لبنا وعسلا ، واذا كان المسلمون انما بعثوا ليشتغلوا بالزراعة فقط ، فلماذا لم يبعثوا فى العراق ، وفى مصر ، والهند وهى بلاد مخصبة زراعية ، ولماذا كان مبعثهم فى واد غير ذى زرع ؟

واذا كانت هذه الأمة انما بعثت للتجارة ، فقد كان فى يهود يثرب وفى انباط الشام وفى اقباط مصر وتجار السند كفاية ، فقد احكموا فن التجارة وانتشروا فى العالم ، واذا كانوا قد بعثوا ليشتغلوا بالتجارة حقا فلماذا لم يبعثوا على طريق القوافل التجارية ، وبقرب من أسواق التجارة الكبرى ؟

واذا كانت هذه الأمة انما بعثت للصناعة وأعمال اليد ، فقد كان فى قيون البلاد المتمدنة ، واصحاب الصنائع والحرف — وانهم لكثير — غنى وكفاية !

واذا كانت هذه الأمة انما بعثت لتنضم الى الحكومات الرومية والايرانية ، وتشغل أفرادها وظائف هذه الحكومات ومناصبها ، فقد كان فى اهل الشام وفارس غنى وكفاية فى الادارة ، وانهم يزاحمون الأجانب بالمناكب ويدفعونهم بالراح .

واذا كانت هذه الأمة بعثت لعيش هنيىء ، ومطعم شهى ، ومشرب مرىء ، وملبس وضىء ، ومسكن بهى ، لا لشىء آخر وانما

مناها وهمها أن تلقى لبوســـا ومطعما ، لم تكن بدعا من الأمم ، وكانت منافسة لنا فى ميدان الحياة ، فحق لنا أن تقاتلها ونذودها عن مناهلنا ، وقد ضاقت بنا ، فكيف تسع أمة جديدة ؟

واذا كانت هذه الأمة انما تحاول ملكا ، أو تريد أن تؤسس دولة ، فيجب أن تصرح بذلك ، وتتخذ له طريق الملوك والفاتحين ، ولا تتظاهر بالدين .

وان الطريق الى كل ذلك ــ من زراعة ، وتجارة ، وصناعة ، ووظيفة ، وحياة بذخ وترف ، وملك وشرف ــ غير الطريق التى سلكتها هذه الأمة الجديدة ، فقد سفهت احلامنا ، وعابت آلهتنا ، ونعت على عقائدنا واخلاقنا وأعمالنا ، ودعت الى دين جديد ، وسارت فى سبيل ذلك فى شوك وقتاد ، وجاهدت فى غير جهاد .

لقد كان الطريق الى الرفاهية أو الحكومة مسلوكة معبدة ، قد سلكتها الأمم من قبل ، ومشى عليها الملوك ، وأصحاب الطموح فى عصرهم ، فمن حال بينها وبين هذه الطريق ؟ وما الذى عدل بها عن جادة الحياة ، وهى معلومة واضحة ؟!

هذا ما اظنه تناجى به ضمير الانسان العاقل فى فجر الاسلام ولا ألومه ولا أستغرب هذا السؤال ، فان هذا السؤال طبعى ينبغى أن يهجس فى قلب الانسان ، وينطق به اللسان ، عند كل ناشئة فلماذا لا ينشأ هذا السؤال عند ظهور أمة بأسرها ؟

ما هو الجواب ؟ اذا كان الجواب فى الاثبات ، واذا كان مبعث هذه الأمة فى الحقيقة بشىء مما ذكرناه ولم تكن لهذه الأمة مهمة جديدة فى العالم ورسالة خاصة الى الأمم ، كانت هذه الامة حقــا من فضول الأمم ، ومن المتطفلين على مائدة العالم .

ولكن الله لم يبعثها لهذا أو لذاك ، والأمة والأشخاص لا يبعثون لشيء من هذا ، وانما هى من طبائع البشر ، لا تحتاج الى نبوة نبى ، ولا بعثة امة ، وجهاد طويل وزلزال عالمى لم يسبق فى التاريخ زلزال فى المعتقد والأخلاق والميول والنزعات ، وفى نظام الفكر ومنهاج الحياة .

لقد كان مبعثها لغرض سام جدا ، لمهمة غريبة طال عهد الانسانية بها ، وتشاغلت أمم الأنبياء عنها حتى نسيتها ، وذلك ما خاطب به الله سبحانه وتعالى هذه الأمة : ((كنتم خير امة اخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله)) (١) ! فنبه على أن هذه الأمة ليست نابتة نبتت فى الأرض كأشجار برية أو حشائش شيطانية ، بل انها أمة اخرجت ولأمر ما اخرجت ! وانها لم تظهر لمصلحتها فحسب كسائر الأمم ، بل انها اخرجت للناس ، وذلك ما تمتاز به الأمة فى التاريخ ، فما من أمة الا وهى وليد اغراضها ، ورهين بطنها وشهواتها ، تعيش لاجلها وتموت فى سبيلها ، اما الأمة الاسلامية فهى أمة اخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتجاهد فى سبيل الله .

ظهرت نواة هذه الأمة فى مكة ــ قلب جزيرة العرب ــ فقام العقلاء من قريش ــ وهم الآخذون بزمام الحياة فى البلاد ــ ونثروا كنانة فكرهم ، وقاسوا الناشئة الجديدة بمقاييسهم التى عرفوها وألفوها ، ووزنوها فى ميزان الانسانية الذى طالما وزنوا فيه أصحاب الطموح ، فوجدوهم خفاف الوزن ، طائشى الكفة ، وذهبوا الى امام الدعوة الاسلامية ، وأول المسلمين فى العالم ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال قائلهم :

---

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

« انك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها » .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل ياأبا الوليد أسمع » .

قال : « يا ابن أخى ، أن كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنالك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت انما تريد شرفا ، سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك . وان كنت انما تريد ملكا ملكناك علينا (١) » .

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك فى هدوء وتأن ، ثم رفضه فى غير شك وتأخير ، ولم يكن هذا العرض من قريش على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب ، بل كان على هذه الأمة التى يمثلها ويقودها . ولم يكن رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرضت قريش ، رفضا عن نفسه الكريمة فقط ، بل كان رفضا عن أمته الى آخر الأبد .

اقتنعت قريش بهذه المحاورة ، ويئست من مساومة هذه الأمة ، ولم تعد تعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة وعلى هذه الأمة بواسطة ما عرضته من قبل ، وقطعت منها أملها .

وكان بعد ذلك صراع مستمر ، ونزاع طويل ، ولم يكن نزاعا فى أغراض المادة وشهوات البطن ، والاستئثار بموارد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

الرزق ، والتغلب على الأسواق ، بل كان نزاعا بين الاسلام والجاهلية بمعنى الكلمتين ، نزاعا بين حياة العبودية والانقياد لله تعالى ورسوله ، وبين الحياة الحرة المطلقة التى لا تعرف قيدا أو لا تخشى معادا ولا حسابا .

وكان من نتيجة ذلك معركة بدر الحاسمة ، وقد قاد النبى صلى الله عليه وسلم الى ساحة القتال جيشا لا يزيد عدد المقاتلين فيه على ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، والجيش المنافس فيه ألف محارب ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم يقينا ان لو وكل المسلمون الى أنفسهم وقوتهم المادية ، فالنتيجة معلومة واضحة ، نتيجة كل قليل ضعيف أمام قوى كثير العدد .

فزع الرسول الى الله تعالى فى انابة نبى ، والحاح عبد ، ودعاء مضطر ، وشفع لهذه العصابة فى كلمات صريحة واضحة ، نيرة خالدة ، هى خير تعريف لهذه الأمة ، وبيان لمهمتها وغرضها الذى خلقت له .

لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو هلكت هذه العصابة ، وكانت فريسة للعدو ، اقفرت المدينة ، وأوحشت أسواقها ، وكسدت التجارة ، وبطلت الزراعة ، أو تعطل شغل من اشغال الحياة ، أو وقفت ادارة الحكومات . لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من ذلك ، لأن شيئا منها لم يتوقف على المسلمين ولم يقم بهم بل كان قبل وجود المسلمين ولا يزال فى غنى عنهم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر شيئا بعث المسلمون لاجله ، وقام بالمسلمين وحدهم ، فقال : « اللهم ان تهلك هذه العصابة لن تعبد » .

أجاب الله دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقضى بانتصار المسلمين على عدوهم ، وبقائهم ، فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطا

بقيام حياة العبودية بهم ، وقيامهم بها ، فلو انقطعت الصلة بينهم وبين العبادة ورواجها وازدهارها فى العالم ، انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة ولم يبق على الله لهم حق وذمة ، وأصبحوا كسائر الأمم خاضعين لنواميس الحياة وسنن الكون ، بل كانوا أشد جريمة ، وأقل قيمة من الأمم الأخرى ، اذ لم يشترط لبقائها وحياتها مثل ما اشترطلهم ، وكان كما أخبر الله تعالى : **« قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم ، فقد كذبتم فسوف يكون لزاما (١) »** .

وقد حافظ المسلمون على هذا الشرط ، وبروا بهذا العهد ، وتذكروا أنهم انما نصروا على عدوهم — وقد كان يأتى عليهم ويستأصلهم فى ساحة بدر — وتركوا على ظهر الأرض لأن عبادة الله منوطة بهم على أرض الله .

بهذه الرسالة انبثوا فى العالم ، وحملوها الى الملوك والسوقة والأمم ، وفى سبيل ذلك هاجروا وجاهدوا ، ، ولأجل ذلك حاربوا وعاهدوا ، ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعوثون من الله الى الأمم ، وحاملو راية الاسلام فى العالم .

أرسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر الى رستم — قائد الجيوش الفارسية وأميرهم — فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة ، والزرابى ، وأظهروا اليواقيت واللآلى الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعى بثياب صفيقة ، وسيف وترس ، وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك

---

(١) الآية ٧٧ من سورة الفرقان .

الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضته على رأسه ، فقالوا له :

« ضع سلاحك » فقال : « انى لم آتكم وانما جئتكم حين دعوتمونى ، فان تركتمونى هكذا ، والا رجعت » ، فقال رستم : « ائذنوا له » فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ، فخرق عامتها ، فقالوا له : « ما جاء بكم ؟ » فقال : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبدا ، حتى نفضى الى موعود الله » قالوا : « وما موعود الله » ؟ قال : « الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى (١) » .

أباح الله للمسلمين الطيبات ، وفسح لهم فى طرق الكسب ووجوه المعاش ، ولم يضيق عليهم فى ذلك ، فقال : **« قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (٢) .**

وقال : **« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » (٣) .**

ولكن الله لم يبعثهم لذلك أمة ، ولم يرضه لهم غاية ومهمة ، بل خلقهم للسعى للآخرة ، وخلق أسباب الحياة لهم ، « ان الدنيا خلقت لكم ، وانكم خلقتم للآخرة » وجعل الحياة وأسبابها خاضعة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .
(٢) الآية ٣٢ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ١٠ من سورة الجمعة .

لمهمتهم التى بعثوا لأجلها ، فاذا زاحمتهم فى سبيل مهمتهم أو غلبتهم عليها ، رفضوها واذا تلكأ المسلمون فى ذلك عاتبهم الله عتابا شديدا وقال :

« قل ان كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، واخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » (١)

أراد الأنصار رضى الله عنهم أن يتفرغوا لاصلاح أموالهم ، لأيام ، اكتفاء بأنصار الاسلام ، فعاتبهم الله على ذلك وأنزل : **« ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » (٢) .**

قال سيدنا أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه : « انما نزلت فينا معشر الأنصار ، انا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا فى ما بيننا : لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها ، فأنزل هذه الآية » (٣) .

ولكن مع الأسف الشديد ، قد تشاغل المسلمون اليوم بالدنيا كالأمم الجاهلية وسعوا وراءها ، وعقدوا حياتهم بها ، فاذا أشرفتم على مدنهم وبلادهم من مرقب عال لم تميزوا بينهم وبين أفراد أمة جاهلية ، سعى وراء المادة فى غير اقتصاد ، واكتساب من غير احتساب ، سهر فى غير طاعة ، وعمل فى غير نية ، وتجارة فى لهو عن ذكر الله ، وحرفةفى جهل عن دين الله ، ووظيفة فى الاخلاص لغير الله ، وحكومة فى مشاقة الله ، شغل فى ضلالة ، وقعود فى بطالة ، وحياة فى غفلة وجهالة .

---

(١) الآية ٢٤ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

(٣) رواه أبو داود فى سننه .

هل اذا اطلعتم ـ يا سادتى ـ على بلاد اسلامية ، ورأيتم هذه الأمة فى غداوتها وروحاتها الى الأسواق والادارات ، ومصالح الحكومة ، عرفتم أنها أمة خلقت لشىء آخر ، وبعثت لغرض آخر أسمى من هذه الأغراض التى يسعى لها الكافر والمؤمن .

ان هذا الأسلوب من الحياة لحجة ظاهرة لأهل الجاهلية على المسلمين ، فلو نطقوا لقالوا : « ما ذنبنا ، أيها المسلمون ! اذ عرضنا على نبيكم المال ، والسيادة ، والملك ، فأبى ورفض كل ذلك ؟! الا نراكم تسعون اليوم وراء الذى رفضه نبيكم بالأمس ، كأنما خلقتم لأجله ؟ فأى الفريقين أشد ذنبا ، أمن عرض على محمد صلى الله عليه وسلم المال والسيادة والملك ، تفاديا من الخلاف والنزاع ، فأبى ورفض ، أو من تهافت على ما رفضه سيده تهافت الظمآن على الماء ، والفراش على النور ؟.

واذا كنتم اليوم لا يهمكم الا المال ، أو الحياة ، أو الشرف ، أو حكم على قطعة أرض ، فلماذا تظاهرتم بالأمس بالدين ، وأقمتم الدنيا وأقعدتموها لأجله ، وكدرتم علينا صفو العيش ، لقد كنتم وكنا فى غنى عن هذه الحروب الطاحنة التى أيتمت البنين ، وأيامت النساء ، وأجلت الناس عن الأوطان !.

اعيدوا الينا اذا تلك الدماء التى أريقت فى ساحة بدر وأحد ، وخيبر وحنين ، واليرموك والقادسية ، وأعيدوا الينا تلك النفوس التى قتلت باسم الدين ، وأعيدوا الينا تلك الأيام التى كنا نعيش فيها فى وئام وهدوء ، لا نعرف فيها الا الأكل والشرب وقضاء مآرب النفس !

وماذا يكون جوابنا لو تعرض أحد من أخلافهم الأحياء وقال : « ما غناؤكم ايها المسلمون ؟! لقد ساهمتمونا فى أسباب الحياة ، وخلقتم لنا فوق ذلك مشكلات كثيرة فى الحياة السياسية

والاجتماعية ، ولا نراكم تسدون عوزا ، أو تصلحون خللا ، وتلمون شعثا ، أو تقيمون زيفا فى الحياة » .

عفوا أيها القراء ، وسماحا أيها الكرام ، فقد طال العتاب ، وقديما قال الشاعر العربى :

وفى العتاب حياة بين أقوام

من المعلوم أن حياة الأمم بالرسالة والدعوة ، وان الأمة التى لا تحمل رسالة ولا تستصحب دعوة ، حياتها مصطنعة غير طبعية وانها كورقة انفصلت من شجرتها ، فلا يمكن ان تحيا بسقى او رى : « فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » (١) .

اننا ــ أيها القراء ــ أمة الحاضر وامة المستقبل ، قد كتب لنا الخلود والنصر ، لأننا اصحاب دعوة ورسالة نبوية ، وهى الرسالة الأبدية التى قضى الله بخلودها وظهورها ، فلسنا تحت سيطرة المادة وحكم الزمان ، بشرط أن نقوم بدعوتنا ، ولنستقل برسالتنا ونعود امة دعوة نبوية كما بدانا ، دعوة فى ما بيننا معشر المسلمين ودعوة فى غيرنا من الأجانب فى الدين .

لقد تخلفنا عن الأمم المعاصرة فى العلوم الطبيعية ، والأسباب الحربية ، وفى الأخذ بأسباب الرقى المادى بعدة قرون ، وقد كانت المسابقة بيننا وبينهم كمسابقة الأرنب والسلحفاة ، الا ان الأرنب كان ساهرا مع خفته وسرعته ، والسلحفاة نائمة رغم بطئها وثقلها فلو حاربنا هذه الأمم اليوم لاستغرق ذلك قرونا ، ثم كانت المقارنة بحساب دقيق ، فاذا افاق العدو وسبقنا بشعرة فى القوة المادية

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد .

والعدد الحربية رجحت كفته ، لأن المادة عمياء وهى من القساوة والحياد التام بمكان لا تفرق فيـــه بين المحق والمبطل والشريف والوضيع .

ولكن الدعوة والرسالة ــ وهى الروح التى تقهر المادة وتسخر الأسباب وتستنزل النصر ــ تأتى بخوارق ومعجزات ، وطالما قهرت القاهر وفتحت الغالب ، وطالما خضعت الحكومات القاهرة ، ودانت الملوك الجبابرة بقوة الدعوة والرسالة للمماليك والصعاليك ، وقد جربت ذلك هذه الأمة مرتين بوضوح فى التاريخ :

مرة :لما خرج العرب من جزيرتهم الى البلاد الرومية والفارسية فى ثياب صفيقة مرقعة ، وفى نعال وضيعة مخصوفة ، يحملون سيوفا بالية الأجفان ، رثة المحامل ، على خيل قصيرة ، متقطعة الفرز ، وسرعان ما قهرت دعوتهم ورســـالتهم وحياتهم الأمم الرومية والفارسية ، التىكانت كدمى كسيتحللا فاخرة ، وأعوادا أسندت الى الجدار ، لحرمانها من رسالة ، وقعودها عن دعوة ، وكان الانتصار فى الأخير للرسالة على النظام ، وللروح على المادة ، وللمعنى على الظاهر .

ومرة ثانية : لما قهر التتر ــ ذلك الجراد المنتشر ــ العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، وخضدوا شوكة المسلمين ، فلم تقم لهم قائمة ، ولم يقف فى وجههم واقف ، وكاد المســـلمون يصبحون أثرا بعد عين ، واستولى اليأس على قلوبهم حتى كان من الأمثال السائرة : ((اذا قيل لك أن التتر انهزموا ، فلا تصدق)) هنالك فعلت الدعوة الاسلامية فعلها ، ونفذت فيهم . فاذا القاهر يصبح مقهورا ، واذا الفاتح مفتوح لدين المفتوحين ، واذا التتر يتلفظون بكلمة الاسلام ، ويدينون برسالة محمد عليه الصـــلاة والسلام ، ويصبحون أمة اسلامية .

وان الرسالة الاسلامية لتأتى بالمعجزات اليوم ، وتقهر الأمم طوعا — لا كرها — بسلطانها الروحى ونفوذها العجيب .

ان آباءكم — أيها السادة المسلمون — قد انتشروا فى عواصم الجاهلية الأولى ، ومراكزها الكبرى ، يقولون : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام » وخلصوا الأمة الرومية من عبادة المسيح والصليب والأحبار والرهبان والملوك ، وخلصوا الأمة الفارسية من عبادةالنار وعبودية البيت الكيانى ، والأمة الطورانية من عبادة الذئب الأبيض ، والأمة الهندية من عبادة البقر ، وأخرجوها الى عبادة الله وحده ، وأخرجوها فعلا من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، والعالم ينتظر منذ زمان ، رسل المسلمين ينتشرون فى عواصم الجاهلية الثانية ، يهتفون : « الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن ، الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس والأثرة والجشع المادى الى سعة عالم القناعة والايثار والزهد ، ونعيم الروح وطمأنينة القلب ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية ، الى عدل الاسلام » .

هذه هى الدعوة التى تهيب بكم يا رجال العالم الاسلامى ، وهذه الانسانية البائسة تستصرخكم وتستغيثكم على أعدائها . وليس العالم اليوم بأقل ظمأ وأقل فاقة الى الدعوة الاسلامية الصحيحة منه بالأمس ، وانه لا يختلف عما كان عليه فى القرن السادس المسيحى ، فهو غنى اليوم فى كل ناحية من نواحى الحياة وفى جميع الحرف والصناعات ، وقد ضاق بالأمم والحكومات ، وطفح بالاعلام والرايات ، وفاض بالحركات والدعوات ، وضجر بطغيان الأهواء والنزعات ، وثورة الأغراض والشهوات ، فهو فى ذلك لا يقبل علاوة ، ولا يسمح بزيادة ، فاذا لم يكن المسلمون الا أمة من الأمم ليست لهم دعوة الى الله ، ولا رسالة للانسانية

المحتضرة ، ولم يكن لهم هم الا أنفسهم وبطونهم ، لم يكن هنالك ما يبرر تاريخهم الماضى الذى افتتح بالدعوة الدينية والجهاد فى سبيلها ، ولا يبرر وجودهم فى هذا العصر ، فانما نصروا واستبقوا بشريطة القيام بالعبادة والدعوة اليها .

والدعوة الى الله هى الناحية الوحيدة التى لا تزال فارغة فى خارطة العالم ، لا تشغلها أمة ولا دعوة ، فاذا عمرها المسلمون احسنوا الى الانسانية والى أنفسهم ، وأمسكوا هذا العالم المتمدن الذى قد كاد يهوى فى الهاوية .

معقل الانسـانية

كان وجود الأمة الاسلامية فى كل ناحية من نواحى العالم رمزا لحقيقة غير الحقائق المادية واللذات الجسدية ، وكان كل فرد من أفراد هذه الأمة يعلن للعالم ـ وليدا أو ميتا ـ أن وراء القوى المادية قوة سماوية ووراء الحياة الفانية حياة خالدة ، فاذا ولد وليد صرخ فى اذنه بهذه الحقيقة ، واذا مات فارق الدنيا بهـذه الشهادة .

اذا ساد على هذا العالم جمود أشبه بالموت ، وغاص النـاس فى بحر الحياة الى أذقانهم ، واختفت كل حقيقة وراء الحقائق المادية ، اذا بصوت يدوى « حى على الصلاة ، حى على الفلاح » فينكسر طلسم العالم المادى ، وتتجلى الحقيقة الروحية ، ويجرى الناس وراء هذا الصوت ، وقد نفضـوا أيديهم من اشـغالهم وخروا أمام ربهم . واذا ضرب الليل رواقه ، ومد النوم أطنابه على هذا العالم الحى الصاخب ، فاذا هو مقبرة واسعة ليس بها داع ولا مجيب ، اذا بمعين الحياة ينصب فى وادى الموت ، فينبلج الصبح الصادق فى الليل الغاسق ، وتتلقى الانسانية الناعسة من مؤذن الفجر درسا فى الحياة والنشاط والكدح والكفاح ، والشكر والعبادة . واذا اعتز أحد بقوته وسلطانه ، وزها بكثرة ملئـه واعوانه ، وقال بلسان المقال او بلسان الحال : « أنا ربكم الأعلى » أو « ما لكم من اله غيرى » قام رجل متواضع على منصة عالية فى كل بقعة من بقاع مملكته ، أو نفوذه ، ونادى «الله أكبر الله أكبر» فينادى بحكم الله فى مملكته ويرغم أنف الاله الكاذب فى سلطانه .

اذا هاجرت جالية مسلمة من رقعة من رقاع هذه الأرض ، أو أجليت منها ، لم يصب نظام المعيشة بشلل أو خلل ، وظل

الناس يتكسبون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وظلت رحى الحياة تدور دورها الطبيعى ، ولكن روح ذلك المجتمع الانسانى تفارق جسده فيصير جثة هامدة لا حياة فيها ولا روح ، كذلك كان فى اسبانيا ، وكذلك كان فى كل بقعة انسحب منها المسلمون أو أجلاهم عنها أهلها ، وهل أسبانيا الحاضرة الا مدنية بلا روح ، وحياة بلا مبدأ ، وأمة بغير رسالة للعالم !.

ان المؤمن وحده هو صاحب عاطفة فى هيكل العقل والمادة الذى لا يعبد فيه الا النفس والبطن ، وهل الحياة الا بالعاطفة؟ وهل الدنيا اذا ماتت العاطفة ، وغلب العقل ، وحكمت المادة ، الا سوق تجارة أو ميدان حرب ؟ فاذا ثار المؤمن للحق كسر طلاسم العقل ، وفك سلاسل الكون ، وحطم أصنام المادة ، وأملى على العالم ارادة الله ، فاذا هو مطيع خاضع واذا هو متواضع خاشع ، قلب تيار الحياة وغير وجـــه التاريخ ، وأرغم الـكون على أن يسير سيرته .

حالت دجلة فى سبيل المسلمين دون المدائن ، وكانت السنة كثيرة المدود ، ودجلة تقذف بالزبد ، فجمع سعد الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : « الا انى قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم » فقالوا جميعا : « عزم الله لنا ولك على الرشد ، فافعل » فندب الناس الى العبور ، وأذن لهم فى الاقتحام ، وقال : « قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، و[illegible]رن دينه ، وليهزمن عدوه ، ولا قوة الا بالله العلى العظيم » ، وتلاحق الناس فى دجلة ، وهم يتحدثون كما يتحدثون فى البر ، وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطىء شىء (١) .

(١) الكامل لابن الاثير (ج ٣ ص ١٩٨) .

نزل طارق بالاندلس ، والبحر وراءه والعدو أمامه والمستقبل رهيب ، والطريق مظلم ، والأرض كفة حابل ، والعدد زهيد والمدد بعيد ، فهزىء بأشباح المادة المخيفة ، وعاند العقل ، وأمر باحراق السفن التى ترجع به الى بلاده (١) ، وعزم على الفتح وأيقن بالنصر ، فهزم العدو ، وملك الجزيرة الخضراء للمسلمين .

أراد عقبة بن نافع أن يتخذ مدينة فى افريقية ، يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد ، فقصد موضع القيروان ، وكانت وحلة مشتبكة ، بها من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك ، فدعا الله وكان مستجاب الدعوة ثم نادى : أيتها الحيات والسباع ، انا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ارحلوا عنا ، فانا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه ، فنظر الناس ذلك اليوم الى الدواب تحمل أولادها ، وتنتقل فرآه قبيل كثير من البربر فأسلموا (٢) .

خرج محمد بن القاسم ـ وهو ابن سبع عشرة سنة ـ لغزو الهند ، ومعه حفنة من الناس ، والبحار حائلة ، وبلاد العدو واسعة الأطراف وعرة المسالك لم يجربها العرب ، فهزىء بالمعوقين والمرهبين ، وغلب الايمان القوة وغلب الروح المادة ، واذا بالهند ـ من السند الى الملتان ـ خاضعة للمسلمين .

ان العالم كله مدينة الأوهام ، والمؤمن وحده هو صاحب يقين لا يزول ، وعقيدة لا تتحول ، وهو فى يقينه فى عالم الأوهام ، كمصباح الراهب فى الغابة المظلمة ، ومنارة النور فى بحر الظلمات والجزيرة التى يأوى اليها اليائسون ، والطود الذى لا تزحزحه السيول ، ولا تزلزله العواصف وقد يتمسك بيقينه ، ولا يوافقه

---

(١) نفح الطيب (جـ ١ ص ١٣١) .

(٢) الكامل لابن الاثير (جـ ٣ ص ٣٣٤) .

على ذلك احد ، ولا يصدقه أحد ، فلا تخور عزيمته ، ولا تلين عريكته ، ولا يرتاب ولا يتلدد ، والناس بين معارض ومنتقد ، ومطيع كاره ، أو مخالف معتزل ، وهو لا يحفل بذلك ، ويمضى كالسيف ، حتى يهزم يقينه الف جند من الشك ، وينقشع سحاب الأوهام ، ويظهر يقينه مثل فلق الصبح .

استعمل النبى صلى الله عليه وسلم اسامة بن زيد على جيش وامره بالتوجه الى الشام ، وتوفى النبى صلى الله عليه وسلم ولم يسر الجيش ، وارتدت العرب اما عامة أو خاصة من كل قبيلة ، وظهر النفاق واشرأبت يهود والنصرانية ، وبقى المسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة ، لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم ، فقال الناس لأبى بكر : ان هؤلاء ـ يعنون جيش أسامة ـ جند المسلمين ، والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك ، فلا ينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك ، فقال ابو بكر : « والذى نفسى بيده ، لو ظننت ان السباع تختطفنى ، لأنفذت جيش اسامة كما امر النبى صلى الله عليه وسلم » فخاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو ، وأن يخرج كل من هو من جيش اسامة الى معسكره بالجرف ، فخرجوا كما امرهم ، وحبس أبو بكر من بقى من تلك القبائل التى كانت لهم الهجرة فى ديارهم ، فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل ، فلما خرج الجيش الى معسكرهم بالجرف وتكاملوا ، ارسل اسامة عمر بن الخطاب وكان معه فى جيشه الى ابى بكر ، يستأذنه أن يرجع بالناس ، وقال : ان معى وجوه الناس وجلدتهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون ، وقال من مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب : ان أبا بكر خليفة رسول الله ، الا فامض فأبلغه عنا ، واطلب اليه أن يولى أمرنا أقدم سنا من أسامة ، فخرج عمر بأمر اسـامة الى أبى بكر ، فأخبره بما قال اسامة ، فقال : لو خطفتنى الكلاب والذئاب لأنفذته كما امر به رسول الله صلى الله عليـه وسلم ،

ولا أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته ، قال عمر : فان الأنصار تطلب رجلا أقدم سنا من أسامة ، فوثب ابو بكر ـ وكان جالسا ـ وأخذ بلحية عمر وقال : ثكلتك امك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أعزله ؟!

وسار أسامة ، وأوقع بناس من قبائل قضاعة التى ارتدت ، وغنم وعاد ، وكانت غيبته أربعين يوما ، وقيل سبعين ، وكان انفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعا للمسلمين ، فان العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه(١) .

ان العالم سوق لا رحمة فيها ولا شفقة ، ولا مسامحة فيها ولا كرم ، والمؤمن وحده هو الذى يؤثر على نفسه ، ولو كان به خصاصة ، ويسامح مدينه وعدوه ، ويتنازل عن ملك واسع وعرض قريب ، طمعا فى الأجر ، ومحافظة على الكرم .

تغلب ملك كافر على دولة اسلامية فى بلاد مالوه بالهند سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، وخرج محمود شاه الخلجى صاحب مالوه من بلاده هاربا عنه الى كجرات ، فنهض السلطان مظفر الحليم ـ وكان الخلجى لا يزال على القلعة ـ وشرع فى المحاصرة وجد فى أسباب الفتح ، ودخل القلعة عنوة ، ووضع السيف فيهم وكان آخر أمرهم انهم دخلوا مساكنهم ، وغلقوا الأبواب ، وأشعلوها نارا واحترقوا وأهليهم ، وبلغ عدد القتلى من الكفرة تسعة عشر الفا ، سوى من أغلق بابه واحترق ، وسوى أتباعهم ، فلما وصل السلطان الى دار سلطنة الخلجى التفت اليه ، وهنأه بالفتح ، ودعا بالبركة فى ملكه ، وقال له : بسم الله ادخلوها بسلام آمنين ،

---

(١) الكامل لابن الاثير (جـ ٣ ص ١٣٧ ـ ١٣٨) .

وعطف عنانه خارجا من القلعة الى القباب ، وهيأ الخلجى الضيافة ونزل الى مظفر شاه السلطان وسأله التشريف بالطلوع ، فأجابه ، فلما فرغ من الضيافة دخل به فى الأبنية التى هى من آثار أبيه وجده ، فأعجب بها وترحم عليهم ، ثم جلسا فى جانب منه ، وشكره الخلجى ، وقال : الحمد لله الذى أرانى بهمتك ما كنت اتمناه بأعدائى ، ولم يبق لى الآن أرب فى شىء من الدنيا ، والسلطان أولى بالملك منى ، وما كان له فهو لى ، فأسألك قبول ذلك ، وللسلطان أن يقيم به من شاء ، فالتفت السلطان اليه ، وقال له : ان أول خطوة خطوتها الى الجهة كانت لله تعالى ، والثانية كانت لنصرتك ، وقد نلتها فالله يبارك لك فيه ، ويعينك عليه ، وسأله أركان دولته ، أن يستأثر بدولة الخلجى ، فالتفت الى محمود ، وقال له : احفظ باب القلعة برجال لا يدعون احدا يدخلها بعد نزولى ، حتى من ينتسب الى ، وانصرف الى بلاده (١) .

العالم بلاد لا يعيش فيها الا من يحمل فى جنبه قلبا كانما قد من حجر ، لا يعرف الحنان والرحمة ، ولا يعرف معنى الحب والايثار ، والمؤمن وحده هو الذى يحمل فى جنبه قلبا يفيض حنانا ورحمة للبشر ، ويجمع بين الرحمة والشدة ، والصلابة والرقة ، وشكيمة الأسد وحنان الأم ، تخلق بأخلاق الله فجمع بين الرافة والعزة ، والجمال والجلال ، وتخلق بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يغضب لنفسه ، حتى اذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شىء ، فبينما تراه فى ساحة الجهاد كأنه نار فى حطب ، او منجل فى حقل ، ليس له عاطفة ولا قلب ، اذا به تراه فى الصلاة تهمل عيناه ، ويغلى صدره كالمرجل ، وتراه يرق للضعيف ، ويحنو على الأرملة واليتيم ، قد جمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل ، الا أن الأولى له سجية وطبيعة ، والثانية له وسيلة وذريعة ،

---

(١) نزهة الخواطر للعلامة عبد الحى الحسنى ج ٤ .

فهو ينشد بلسان الحال : وانى لحلو تعترينى مرارة (١) ، لا يدع السماحة والكرم حتى مع العدو ، ولا يترك التمسك بالأخلاق العالية حتى فى ساحة القتال .

هذا صلاح الدين الذى سار مثلا فى شـــدته وجلادته ، تستغيث به امرأة اختطف ولدها ، فهى تبكى بكاء الثكلى ، فيرق لها بطل حطين ، ويطوف بها على القبائل والمنازل ، حتى تعرف ابنها ، وتضمه الى صدرها (٢) ، ويهدى الى قرنه ، واعدى عدوه فى العالم « رتشارد » الثلج . والفواكه فى مرضه (٣) .

الناس من خوف الموت فى الموت ، وأشد من الموت ، يعدون هذه الحياة راس مالهم ومنتهى آمالهم فليس من الغريب أن يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، حتى اذاجاءه الموت ، خرج من الدنيا حزينا متلهفا على ما يفارقه ، كارها مستبشعا لما يستقبله .

اما المؤمن فهو دائم الحنين الى ربه ، شـــديد الشوق الى جنته ، لا يبالى أوقع عليه الموت أم على الموت وقع ، يستقبل الموت باسم الثغر جذل القلب ، فرحا مستبشرا كأنما هو خارج من السجن ، أو عائد الى الوطن .

لما طعن جبار بن سلمى عامر بن فهيرة يوم بئر معونة ، فأنفذه ، قال عامر : « فزت ورب الكعبة » (٤) ولما ضرب ابن ملجم على ابن أبى طالب ، قال : « فزت ورب الكعبة » (٥) .

---

(١) شطر بيت لسيدنا حسان بن ثابت .

(٢) ، (٣) الفتح القسى فى الفتح القدسى : لعماد الدين الكاتب .

(٤) طبقات ابن سعد .

(٥) كتاب المتفجعين لمحمود بن محمد بن الفضل .

قام أبو عبيدة فى الناس فى طاعون عمواس ، فقال : أيها الناس ، ان هذا الوجع رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وان أبا عبيدة سأل الله أن يقسم له منه حظه ، فطعن فمات ، واستخلف على الناس معاذ بن جبل ، فقام خطيبا بعده ، فقال : أيها الناس ، ان هذا الوجع رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وان معاذا يسأل الله أن يقيم لآل معاذ حظهم ، فطعن ابنه عبد الرحمن فمات ، ثم قام فدعا به لنفسه ، فطعن فى راحته ، فلقد كان يقبلها ، ثم يقول ، ما أحب أن لى بما فيك شيئا من الدنيا (١) .

وحضر بلالا الوفاة ، فقالت امرأته : واحزناه ، فقال : « بل واطرباه ، غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه » (٢) وكذلك روى عن عمار ، أنه كان قال ذلك عند وفاته (٣) .

المؤمن هو الذى يستطيع أن يفضل الفقر على الغنى ، والآخرة على الدنيا ، والنسيئة على النقد الحاضر ، والغيب على الشهود ، والدين على الحياة فى كل دور من أدوار التاريخ ، مهما بلغت المادة اوجها .

ليس لقطر من الأقطار أن يمن على الاسلام بأنه فسح له فى أرضه ، وانما الفضل والمنة للاسلام على كل قطر ، فقد ألقى عليه درسا فى التوحيد الذى لا يشوبه شرك ، وحب الانسانية العامة واحترامها ، ووسع أفق خياله فصار يرى للحياة معنى غير معنى وللانسانية مستوى أرفع من مستواها القديم ، وعالما أفسح من وكره الذى يعيش فيه ، انه وضع عن كل أمة اصرها ، والأغلال

---

(١) ألكامل لابن الاثير (جـ ٣ ص ٣١٦) .

(٢) الغزالى فى الاحياء عن ابن أبى الدنيا .

(٣) الطبرانى .

التى كانت عليها ، وأنقذها من العنصرية والجنسية والوطنية ، وعبادة المال والبيوتات ، والأشجار والأحجار ، والحيوانات والأنهار ، والأرواح والأجرام السماوية ، ومن الرهبنة الفاتكة بالمدنية ، والعزبة القاطعة للنسل ، وهو الذى طلسم الأوهام التى مضى عليها قرون ، ودرج عليها أجيال ، أطلق العقل من أساره ، ورفع الحجر عن العلم ، ونسخ احتكار البيوتات للدين ، ورسم فى الذهن منزلة العمل الفردى ، والسعى الشخصى ، واستقلال كل انسان بعمله ومسئوليته ، ومن الذى يستطيع أن ينكر أن الفضل فى تقدم العالم ، وقطع مراحل المدنية والعلم ، انما يعود الى الاسلام . ومن الذى يجهل اليوم أن الفضل فى تقدم أوربا وتخلصها من رق الأحبار والرهبان ، وسلاسل الكنيسة والحكم المطلق ، وفى العكوف على العلوم الطبيعية والتجريبية ، والخروج من الهمجية الى الحضارة ، انما يعود الى الأندلس الاسلامية التى ظلت قرونا طوالا مشعل الثقافة ، ومنبع العلم ، ومدرسة الفن والتهذيب فى العصور المظلمة ! ان كلمات العدل والمساواة ، والانسانية منتشرة ذائعة اليوم فى كل ناحية من نواحى الهند ، وبارزة على كل صفحة من صفحات أدبائها وكتابها ، وخفيفة على لسان كل خطيب ومتكلم ، ومن ذا يكابر فى أن الاسلام هو الذى عرف هذه الكلمات الى أهل هذه البلاد ، وسعى فى رواجها وذيوعها فى بلاد لم تكن تعرف هذه الكلمات ومعانيها .

ان المسلمين ليسوا نسلا أو شعبا فحسب ، وليس الاسلام عادات وتقاليد وتراثا يتوارثه ولد عن أبيه ، أنه دعوة ورسالة وحياة وعقيدة ، تقتضى بالطبع ، أن يكون نظر المسلم أوسع من الماديات المحسوسات ، ومن عالم النفوس والبطون ، ووطنه أوسع من المنطقة الصغيرة التى ولد فيها ، وأن يكون قلبه عامرا بحب كل انسان كائنا من كان ، وأن لا تكون الأوطان والأنساب عائقا ، فى سبيل حبه وعطفه ، وأن لا يكون سعيه منحصرا فى

نطاق الحياة الضيق ، ويلزم لكل من يدين بهذا الدين أن يحمل للبشرية رسالة للروح والقلب ، والعاطفة والسياسة والاجتماع ، ويملك قوة أخلاقية تراقبها فى النور والظلام ، والوحدة والاجتماع والعجز والمقدرة ، عنده أساس متين من العلم ، وبينات ومحكمات فى المدنية ، وحياة نبى كان ولا يزال المثل الكامل للبشرية فى مختلف ظروفه وأحواله ، ومختلف عصوره وأجياله ، وكل عصر وقطـر ، ومفزع الانسانية فى كل ساعة عصيبة ، وكلما حلت بها أزمة عجزت عن حلها العقول البشرية ، والنظم الاجتماعية والسياسية .

اذا حجب الليل النهار ، وهجمت جنود الهوى من كل جانب ، وهزمت الفضيلة والأخلاق ، واذا اصبح الانسان ينحر أخاه لأجل فلس أو لأجل قرص ، واذا أصبحت الشـــعوب الكبيرة تزدرد الشعوب الصغيرة فى سبيل الجشع أو الخيلاء ، واذا صار وثن المال يعبد على قارعة الطريق ، واذا ضحى بألوف من الناس على أنصاب الجنسية والوطنية ، واذا حال الانسان بين الانسان ورزقه اذا التهبت نار الشهوات ، وانطفأ نور القلب ، اذا نسى الانســان الموت ، وعكف على الحياة يعبدها ، اذا غلا الجماد والمعادن ، ورخص الانسان فى سوق العالم ، فصارت المدن العامرة تسوى بها الأرض ، وألوف من البشر يقتلون فى دقائق وثوان بالقنبلة الذرية . اذا تغلبت الأمم الأوربيـــة على العالم ، وجعلته بيت المقامرين ، أو سوق الجزارين ، وعبثت بالانسانية عبث الوليد بجانب القرطاس ، وتلاعبت بالأمم كالكرة . اذا ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس . هنالك يستصرخ هـذا الكون المؤمن ، ويستغيث به ، وهنالك تناديه الانسانية باسم الاسلام الذى طلع كالصبح الصادق فى ظلام الليل الحالك ، وباسم محمد صلى الله عليه وسلم الذى أغاث الله به الانســـانية فى

احتضارها وانتحارها ، وحفظ به مهجة الانسانية ، وادال به من الجاهلية الجهلاء .

فهل يسمع المؤمن فى جزيرة العرب التى أشرقت منها شمس الاسلام ، وفى حواضر البلاد العربية فى آسيا وأفريقيا ، وفى الأقطار الاسلامية عامة ، صراخ الانسانية وعويلها ، فيهب من نومه العميق الطويل الذى مله العالم ، ويثب كالأسد ، وينقض كالصقر على أعداء الانسانية . انه بذلك لجدير وبحول الله على ذلك قدير ، فهو معقل الانسانية ، ومنتهى الرجاء ، وأمين الله فى الأرض وخليفة الأنبياء .

يدعون سيارا اذا احمر القنا ولكل يوم كريهة سيار

* * *

بين الصورة والحقيقة [1]

ان كل شيء له صورة وحقيقة ، وبينهما فرق كبير رغم الشبه العظيم ، تميزون بينهما بسهولة فى حياتكم ، وتعاملون الحقيقة بما لا تعاملون به الصورة ، واضرب لذلك مثلين : هذه مثل للثمار المصنوعة من الخزف ، تتراءى للناظر كأنهـــا تفاح ، ورمان ، وبرتقال ، وعنب ، وموز ، فى لونها وشكلها ، ولكن أين الصـــورة من الحقيقة وأين طعم هذه الثمار ورائحتها ؟ انها ليست الا للزينة أو المثال .

انكم ترون فى المتحف كل نوع من السباع والانعام ، والطيور الجميلة ، والعصافير الصغيرة ، ففيها الأسد ، والذئاب ، والأفيال والدباب ، وفيها كل طائر جارح ، وكل سبع مخيف ، ولكنها جثث هامدة لا حراك بها ، واجساد ميتة محشوة بالليف والقطن ، ليس فيها رمق من حياة ، وقوة تهجم بها وتصول ، حتى لا تحس منها من أحد ولا تسمع لها ركزا .

ان الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة فى الحياة وتأتى بما تأتى به من عمل ونشاط ، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها . فاذا وقع صراع بينهما انهارت الصورة ، ولا يمكنها أن تحتمل عبء الحقيقة ، فاذا وكل أحد الى الصورة وظيفة الحقيقة أو عول عليها فى مهمة خانته الصورة وخذلته أحوج ما يكون اليها .

---

(1) محاضرة ألقاها المؤلف فى حفل عام ، حضره آلاف من المسلمين ، عقدته جماعة التبليغ فى سنة ١٩٤٩ م فى لكنؤ (الهند) ، ونقلها الى العربية ابن أخ المؤلف الاستاذ محمد الحسنى .

والصورة ولو كانت مهيبة هائلة تغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة ، لأن الحقيقة الحقيرة أقدر وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة ، وان الولد يقدر أن يسقط الأسد الميت المحشو بالليف والقطن بيده الضعيفة الناحلة ، لأن الولد يحمل حقيقة ولو حقيقة صغيرة ، والأسد ليس الا صورة ولو كانت صورة مهيبة .

ان هذا العالم الذى نعيش فيه عالم الحقيقة والأمر الواقع ، وقد خلق الله كل شيء على حقيقته : فللمال حقيقة ، وحبه فطرى طبعى ، ولأجل ذلك وردت عنه الأحكام ووضع الله فيه التأثير والجذب ، وللأولاد حقيقة ، والحنان اليهم وحبهم فطرى ، ولأجل ذلك وردت الأحكام فى الشرع عن تربيتهم وتعليمهم . وكذلك للحاجات الطبيعية والميول الفطرية حقيقة لا تجحد ، ولاتغلب تلك الحقائق الا حقيقة أقوى ورغبة أعظم وأشد .

انا نحتاج الى حقيقة الاسلام والايمان للظفر على الحقائق المبثوثة فى العالم . أما صورة الاسلام فهى عاجزة عن أن تقهر هذه الحقائق وتنتصر عليها ، وان كانت حقائق ممزوجة بالباطل لأن الصورة المجردة لا تنتصر على أى حقيقة .

ولذلك نرى اليوم بأعيننا أن صورة الاسلام أصبحت لا تغلب على الحقائق المادية الحقيرة ، لأن الصورة ولو كان ظاهرها مقدسا رائعا ليس لها سلطان وتأثير ، وأن صورة اسلامنا وصورة كلمتنا وصلاتنا اليوم لا تقدر أن تتغلب على عاداتنا الحقيرة ، وتقهر شهواتنا الخسيسة ، او تثبتنا على جادة الحق عند البلاء والامتحان .

ان الكلمة التى كانت من قبل ذات سلطان عجيب على القلوب والأرواح ، وكانت تهون على الناس ترك المألوفات وقهر الشهوات

والشهادة فى سبيل‌الله وبذل الأرواح والأنفس لله ، واحتمال المكاره وتجرع المرائر فى سبيل الله ، هى عاجزة عن أن تحمل الناس على ترك فرشهم بعد أن استغرقوا فى النوم طول الليــــل ، ويقوموا لصلاة الفجر ! نعم ، الكلمة التى كانت تغلب على شهوة الخمر ، فتحول بين الانسان وبين الكأس وهى على راحته ، فيمتنع عن شربها لأن الدين يمنع من ذلك ، ولأن الكلمة تأبى عليه أن يشرب الحرام ، ها هى الآن قد أصبحت لا تملك أمرا ولا نهيا .

سرح طرفك فى تاريخ الاسلام وتجول فى فصوله وأوراقه ، يظهر لك ان كلمة الاسلام التى كان الصحابة وكان المسلمون فى القرون الأولى يتلفظون بهــــا ، كانت ذات حقيقة ثابتة ، وكانت كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها . وكلمتنا نحن الفاظ مجردة ، ونطق فارغ ، ولأجل ذلك ترى عدم تأثيرها فى حياة الأمة . ثم اننا مع ذلك نحاول أن نطبق حياة اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على حياتنا ، ونرجوا ان تؤتى هذه الكلمة اكلها كل حين ، وتحدث ما أحدثت فى الماضى ، حتى اذا لم يكن ذلك بطبيعة الحال تساءلنا وقلنا : « ألســـنا مسلمين ؟ ألسنا نصلى ونصوم ؟ الا نتلفظ بكلمة الاسلام ونرددها صباح مساء ؟! فلماذا هذا الفرق الهائل بين عهدنا وعهد الخلفاء الراشدين ؟! ولماذا هذا البون الشاسع بين حظنا وحظهم ؟! وأين ثمرات شجرة الايمان ؟! وأين نتائج الصلاة والصيام ؟! وأين ما وعد الله من النصر المبين ، والاستخلاف والتمكين ؟! » .

لا تخدعنا أنفسنا !! ولنعلم أنهم كانوا اصحاب جد وحقيقـــة فى الدين . لقد كانت كلمتهم حقيقة ، وكانت صلاتهم حقيقة ، ونحن متجردون عن هذه الحقائق ، فرجاء أن تثمر الصـــورة ما أثمرت الحقيقة وتغنى غناءها ، انما هو وهم وخيــال ، وضرب من المحال .

اما قرأتم فى التاريخ أن خبيبا رضى الله عنـــه رفعوه على الخشبة ، وتناولوه بالرماح والأسنة ، حتى تمزق جسمه وهو قائم لا يشكو ولا يئن ، فقالوا له : « أتحب أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم مكانك ؟ » فيضطرب ويقول : « والله لا أحب أن يفدينى بشوكة يشاكها فى قدمه ! » يا أبناء الاسلام ! ان الذى ثبته فى هذا المكان ، وألهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة العريقة فى حب الرسول هل هى صورة الاسلام ؟ لا ، بل هى الحقيقة التى مثلت بين عينيه الجنة ، والرماح تنوشه وتعبث بجسمه ، وناجته، وقالت : صبرا يا خبيب ، فما هى الا لمحات وثوان ، وها هى الجنة تنتظرك ، ورحمة الله ترتقبك ، فاذا احتملت آلام هـــذا الجسد الفانى والحياة الزائلة العابرة نلت الســـعادة الدائمة ، والحياة الباقية .

هذه هى اللذة الروحية وحقيقة الحب والايمان التى أبت على خبيب أن يطلق ويؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشوكة فى قدمه ، فهل تستطيع الصورة أن تحمل صاحبها على هـــذا الاخلاص والتفانى ، والثبات على العقيدة والصبر على الموت ؟! كلا ان الصـــورة لا تســـتطيع أن تقاوم الشـــدائد والآلام ، بل حتى الخيالات والأوهام . وقد بدا لنا ذلك فى الاضـــطرابات الطائفية الماضية فى الهند ، فان أناسا من المســـلمين قد غيروا صورة الاسلام خوفا مما مر بخاطرهم من الفزع ، وخشية الموت ، وما دار فى رؤوسهم من معارك خيالية حامية ، واختاروا شعار الكفر ، وذلك لأن هؤلاء الناس قد كانوا متحلين بالصورة ، فارغين عن الحقيقة ..

هاجر ســـيدنا صهيب رضى الله عنه ، فلما كان فى الطريق اعترضته جماعة من مشركى مكة وقالوا له : أتيتنا صعلوكا حقيرا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك

ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك ، وهناك قامت المعركة بين حقيقة الاسلام وحقيقة المال ، ودارت بينهما رحى الحرب ، فانتصرت حقيقة الاسلام على ضدها ، وقال لهم صهيب : « أرأيتم ان جعلت لكم مالى اتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم قال : فانى قد جعلت لكم مالى (١) » وهكذا انطلق صهيب بدينه ، متجردا من ماله ، فرحا مسرورا كأنه لم يفقد شيئا ، ولم يخسر شيئا .

وخرج سيدنا أبو سلمة بزوجه وابنه يريد المدينة ، فلما رآه رجال من بنى المغيرة قاموا اليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟! ونزعوا خطام البعير من يده ، واخذوها منه ، وأخذ بنو عبد الأسد سلمة ولده الصغير ، هناك اصطدمت حقيقة الاسلام بحب الزوج والولد ، فما لبثت أن انتصرت عليه ، وغادر أبو سلمة زوجه وولده تحت رعاية الله ، وهاجر وحيدا ، هل الصورة تستطيع ذلك ؟ وهل يقدر أصحابها على ترك الزوجات والأولاد فى سبيل العقيدة والدين ؟ كلا ! بل سمعنا أن أناسا قد ارتدوا عن دينهم للمال ، والأزواج ، والأولاد ، وغير ذلك من متع الدنيا وزخارفها .

كان أبو طلحة مقبلا على صلاته ، فاذا طائر يدخل فى بستانه ثم لا يجد الطريق للخروج ، ويميل اليه قلب أبى طلحة ، فلما انصرف من صلاته تصدق بهذا البستان ، لأنه لا يحب أن يشغله شىء عن حقيقة صلاته ، وينازع قلبه !

ان للبستان حقيقة ، ولثمره وأكله حقيقة ، ولا تغلب هذه الحقائق الا حقيقة الاسلام ، وان صلاتنا اليوم مجردة عن الحقيقة ولذلك لا تقدر أن تقاوم أدنى الحقائق المادية .

---

(١) سيرة ابن هشام (ج ٢ ص ١٢١) .

لقد كان فى حرب اليرموك بضعة آلاف من المسلمين ، وأما الروم فقد كان عددهم يبلغ مائتى ألف أو يزيدون ، فاذا نصرانى كان يقاتل تحت لواء المسلمين يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، فيقول خالد رضى الله عنه : والله لوددت أن الأشقر براء من توجيه، وأنهم أضعفوا فى العدد (١) .

بم كان خالد رضى الله عنه مطمئنا ، ولم لم يشغل خاطره هذا العدد الهائل ولم لم تكبر فى عينه جنود الروم الكثيفة ذلك ؟ لأنه كان مؤمنا بالله واثقا بنصره . ولأنه كان يعلم أنه على الحقيقة ، وان مقابله صورة فحسب ، وأن الروم صورة فارغة عن الحقيقة ، وكان يعتقد أن الصورة مهما كثرت ، لا تقدر أن تقاوم حقيقة الاسلام .

لا شك أننا نتلفظ بكلمة الشهادة والتوحيد ، ومنا من يعرف ما يقول ، ولكن الصورة شىء والحقيقة شىء آخر ، ان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين الصادقين كانوا على حقيقة هذه الشهادة ، فاذا قالوا لا اله الا الله اعتقدوا أنه لا اله غيره ، ولا رب غيره ، ولا رازق غيره ، ولا نافع ولا ضار الا هو ، له الملك والحكم ، والخلق والأمر ، وبيده ملكوت كل شىء ، يجير ولا يجار عليه ، وأخلصوا له الحب ، والخوف ، والسؤال والرجاء ، والعبادة ، والدعاء ، وأصبحوا عبادا حنفاء ، شجعانا أقوياء ، لا يهابون العدو ، ولا يخافون الموت ، ولا يبالون بلومة لائم .

نرجع الى أنفسنا ، ونفكر هل هذه هى الحقيقة متغلغلة فى احشائنا ، ومتسربة فى عروقنا وشرايينا ، وهل غرس حياتنا يسقى بهذا الماء ؟ معذرة وعفوا أيها السادة ، انا نخاف أن لا يكون

---

(١) الاشقر فرس خالد وكان قد حفا واشتكى فى مجيئه من العراق . (البداية والنهاية ج ٨ ص ٩) .

الأمر كذلك ، وأن نصيب الصـــورة فى حياتنا أكثر من نصيب الحقيقة ، وذلك موضع الضعف فى حياتنا ، وسر شقائنا ومصائبنا اننا جميعا نؤمن ان الآخرة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والبعث بعد الموت حق ، ولكن هل اننا حاملون لحقيقة الايمان كأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم باحسان ؟ وقـد سمعنا أن أحدهم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قوموا الى جنة عرضها السموات والأرض فرمى بما معه من التمر وقال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه ، انها لحياة طويلة ، وقاتلهم حتى قتل ، لأن الجنة كانت عنده حقيقة لا يشـك فيها ، فمن أيقن يقول كأنس بن النضر : انى لأجد ريح الجنة من دون أحد .

أتى رجل من المسلمين يوم اليرموك وقال للأمير : انى قد تهيأت لأمرى ، فهل لك من حاجة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ! تقرئه عنى السلام وتقول : يا رسول الله انا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا .

أفيقول هذا الا من يوقن إنه مقتول فى سبيل الله ، وملاق رسول الله ومجتمع به فى نعمة الله ، وأنه مكلمه ومحدثه ، فاذا حصل لرجل مثل هذا اليقين ، فما الذى يمنعه من اســتقبال الموت ، وما الذى يحول بينه وبين الشهادة ؟!

ان أكبر انقلاب وقع فى تاريخ هذه الأمة ، هو أن الصــورة احتلت مكان الحقيقة ، واستولت على حياة الأمة ، وذلك م بعيد فى التاريخ ، والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون أنها الحقيقة ، ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها ، فكانت هـذه الصورة الاسلامية كمجدار ينصبه الفلاح فى حقله كيلا يحل فيه الطير والوحش ، ولا تزال الطيور والوحش تظن أنه انسان ،

أو حارس ، فلا تقربه حتى يتشجع غراب ذكى ،أو حيوان جرىء فيجد أنه ليس بشىء ، هنالك تدخل الطيور والوحش فى هـذا الحقل وتعيث فيه ، وتتلف زرعه ، وقد وقع للمسلمين نفس الحادث ، لقد حرستهم صورة الاسلام مدة طويلة جدا ، فلم تجترىء عليهم أمم العالم ، ولم يدر بخلد احد أن يمتحن هـذا الشبح المخيف ويتحققه .

ولكن حتى متى ؟ لما أغار التتـار على بغـداد ، افتضـح المسلمون وظهر افلاسـهم فى الروح والقوة المعنوية ، من ذلك الحين أصبحت الصورة عاجزة عن أن تحافظ عليهم ، وتذود عنهم المكروه وتدفع عنهم غارات الأمم ، فان الصورة لا تقوم الا على الجهل والغرور ، فاذا انكشف الغطاء وزاح السـتار ، تبين الصبح لذى عينين .

وان ما نرى ونقرأ فى تاريخ الاسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم فى ميادين القتال ، ان كل ذلك أخبار انخذال الصورة وفضيحتها لا غير ، وقد فضحتنا الصورة فى كل معركة وحرب ومقاومة واصطدام ، ولكن الذنب علينا ، حملنا الحقيقة على ظهر الصورة ، فلم تستطع حمله ولم تمسكه ، وعقدنا الآمال الكبار بالصورة الضعيفة فخيبت رجاءنا ، وكذبت أمانينا ، وخذلتنـا فى الميدان .

تكرر الصراع بين صورة الاسلام وشعوب العالم وجنودها ، وفى كل مرة تنخذل وتنهزم الصورة ، ويعتقد الناس أنه هزيمة الاسلام وخذلانه ، وبذلك هان الاسلام فى عيون الناس وزالت مهابته عن القلوب ، ولا يدرى الناس أن حقيقة الاسلام لم تتقدم الى ساحة الحرب منذ زمن طويل ، ولم تنازل أمم العالم ، وان

الذى يبرز فى الميدان هو صورة الاســـلام لا حقيقته ، وخليق بالصورة أن تنهزم ، وتضمحل امام الواقع والأمر الجد .

هاجمت بعض الدول الأوربية فى الحرب الأولى تركيا الاسلامية تركيا التى أرعبت أوربا كلها ، وهزمت دولها مرة بعد مرة ، وكانت تركيا فى هذه المرة حاملة لصورة شاحبة للاسلام ، وقد فقدت شيئا من حقيقة الايمان ، ففشلت فى المقاومة وفقدت كثيرا من ممتلكاتها .

واجتمع سبع دول عربية لمحاربة الصـــهيونية فى فلسطين ، وكانت هـــذه الدول العربية عليلة الروح ، وقد أطفأت المادية الأوربية جمرة القلوب وشعلة الجهاد فى سبيل الله ، وحببت اليها الحياة واللذات ، ثم انها تتخلف تخلفا كبيرا فى المعدات الحربيـــة والتنظيمات العصرية ، فكانت الحرب بين العرب المسلمين واليهود الصيهونيين صراعا بين صورة الاسلام وحقيقة القوة والتنظيم والحماسة ، فكانت نتيجة هذه الحرب نتيجة كل صراع بين الصورة والقوة .

ان الصورة لها منزلة ومكانة عند الله تعالى ، لأنه قد عاشت فيها الحقيقة قرونا طويلة ، ويحبها الله لأنها صورة أوليائه ومحبيه وكذلك نعرف لها الفضل ، لأن الانتقال من صورة الاســـلام الى حقيقة الايمان أسهل بكثير من الانتقال من حقيقة الكفر أو صورته الى حقيقة الايمان والاســلام ، فلنحافظ على هـــذه الصـــورة ولنتمسك بها ، ولكن لا ينبغى أن نقنع بها ونستهين بالحقيقة والروح .

يا أبناء الاسلام ، ان وعد الله من النصرة والفتح فى الدنيا ، والنجاة والغفران فى الآخرة ، كل ذلك محصور فى حقيقة الاسلام ، وذلك قوله تعالى : « **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم**

مؤمنين (١) » لا شك فان الخطاب فى هذه الآية للمسلمين ، ومع ذلك اشترط الايمان للعزة فى الأرض والعلو والشوكة ، وقال فى موضع آخر : « **انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (٢) »** وقال أيضا : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعلموا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٣) »** ورغم أن جميع تلك الوعود كانت على أساس الايمان والأعمال الصالحة اشترط أن يكون فى المسلمين حقيقة الايمان والتوحيد .

ان أكبر مهمة دينية فى هذا العصر ، واعظم خدمة ، واجلها للأمة الاسلامية ، هى دعوة السواد الأعظم للأمة وأغلبيتها الساحقة الى الانتقال من صورة الاسلام الى حقيقة الاسلام ، فلمثل هذا فليعمل العاملون ويبذلوا جهودهم ومساعيهم فى بث روح الاسلام فى جسم العالم الاسلامى ، ولا يدخرون فى ذلك وسعا ، فبذلك يتحول شأن هذه الأمة ، وفى نتيجته شأن العالم بأسره ، فان شأن العالم تبع لشأن هذه الأمة ، وشأن الأمة تبع لحقيقة الاسلام ، فاذا زالت حقيقة الاسلام من الأمة المسلمة ، فمن يدعو العالم الى حقيقة الاسلام ، ومن ينفخ فيه الروح ؟ قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه : « انتم ملح الأرض ، فاذا زالت ملوحة الملح فماذا يملح الطعام ؟ » .

قد أصبحت حياتنا اليوم جسدا بلا روح ، لأن السواد

(١) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٥١ من سورة غافر .

(٣) الآية ٥٥ من سورة النور .

الأعظم للأمة مجرد عن الروح ، فارغ عن الحقيقة ، فكيف تعود الروح والحقيقة فى الحياة الانسانية مرة اخرى ؟!

ان فى هـذا العالم أمما لا تزال فارغة عن الحقيقة والروح منذ أقدم العصور الى يومنا هذا ، ولم يبق فيها الا عدة معتقدات مرسومة ، وبضع صور حقيرة مجردة عن الروح ، وانتهت حياتنا الدينية والروحية الحقيقية ، حتى ان انشاء أمة بأسرها أيسر من اصلاح هذه الأمم وتجـديد حياتها الدينية والخلقية ، والذين نهضوا لاصلاحها ، وبذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل قـد اخفقوا ولم يفلحوا فى مهمتهم ، رغم الوسائل العظيمة الكثيرة التى حدثت فى هـذا العهد من الطبع والنشر ، والتأليف والاذاعة ، والتعليم والتربية ، وطرق الدعاية والتأثير ، وذلك لأن عروة دينها قد انفصمت انفصـاما تاما ، وانقطعت علاقتها عن منبع الحياة الدينية ، والخلقية والروحية .

أما الأمة الاسلامية فلا تزال ــ على علاتها وضعفها ــ مستمسكة استمساكا ما بعروة الدين ، وهى الايمان بالله والرسـول ، واليقين بالدار الآخرة والحساب ، لم تتركها البتة ، ولم تنقطع عنها انقطاع الأمم الأخرى ، بل ان ايمان كثير من عامة المسلمين ودهمائهم يزرى بايمان كثير من خواص الأمم الأخرى ، وعليتهم ، ويفوقه متانة ورسوخا وحماسة ، ثم ان كتابها لا يزال فى يدها لم يتناوله التحريف ، ولم يعبث به العابثون كما فعلوا بالصحف الأولى ، ولا تزال سيرة الرسول وأسوته الحسنة بمتناول يدها ، فالدعوة الى الدين ميسورة ، والتجديد ممكن ، والقلوب متهيئة ، وجمرة الايمان سريعة الاتقاد ، والشقة بين الصورة والحقيقة قصيرة ، والقنطرة بينهما الدعوة الى تجديد الايمان ، والرجوع الى الدين ، والتشبع بروحه والتحلى بحقيقته .

لست قانطا من ظهور حقيقة الاسلام فى هذا العصر ، ولانصدق أبدا بأن الزمان قــد تغير والمســلمين قد ابتعدوا جـدا عن روح الاسلام ، فلا أمل فى حقيقة الاسلام وغلبتها من جديد ، انظروا الى ورائكم ترون جذور حقيقة الاســلام قائمة منتشرة فى فجــر التاريخ ، وان الحقيقة لم تزل تطفو كلمــا رسبت وتظهر كلمــا اختفت ، وكلما ظهرت حقيقة الاسلام وتجلت فى ناحية من نواحى العالم الاسلامى أو عصر من عصــور التاريخ الاســلامى ، غلبت وانتصرت ، وكذبت تجارب الناس وقياسهم وتقديرهم ، وكادت الأحوال والأمور أن تعود الى ما كانت عليه فى الماضى الســعيد ، وهبت على قلوب الناس نفحات القرن الأول ، وان حقيقة الاسلام فى هذا العصر اذا ظهرت وتمثلت فى جماعة ، تستطيع أن تذلل كل عقبة ، وتهزم كل قوة ، وتأتى بعجائب وآيات من الايمــان والشجاعة والايثار ، يعجز الناس عن تعليلها كما عجزوا من قبل عن تعليل حوادث الفتح الاسلامى ، وأخبار القرن الأول ٠



ثورة فى التفكير (١)

اننا ـ معشر المسلمين ـ فى حاجة الى ثورة ، ثورة فى التفكير .

منذ قرون طويلة بدأنا ننظر الى أنفسنا كمجموعة بشرية موزعة فى العالم ، منتشرة فى البلاد ، ذات قوميات مختلفة ، ولغات متنوعة ، وثقافات محلية ، محاطة بظروف ، وأجواء خاصة ، « وامكانات » محدودة ، تجمع بين فروعها المختلفة ، وأسرها المتشتتة « وحدتان » اثنتان لا ثالثة لهما ، « العقيدة » والخضوع للغرب ، والانحصار عليه فى المعيشة والسياسة » .

ومنذ مدة طويلة بدأنا نزن أنفسنا ، وقيمتنا ، ومكانتنا فى خارطة العالم بهذه الطاقات « والامكانات » ، وبما نملكه من الوسائل ، والمواد الخام ، وحواصل البلاد ومنتجاتها ، وعدد النفوس والقوة الحربية ، فنرى كفتنا راجحة فى اقليم ، طائشة فى آخر ، راجحة فى حين ، طائشة فى حين آخر .

ومنذ مدة طويلة آمنا بسيادة الغرب وقيادته ، وأنه أمر مقرر وواقع ليس منه مفر ، وآمنا بأنه وضع لا يقبل التحول ولا التطور ، وتجدد المثل القديم ، وأصبح عقيدة شائعة : « اذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تصدق (٢) » .

واصبحنا لا نفكر فى معارضة الغرب ، ومناقشة سيادته وجدارته للسيادة ، واذا فكرنا فى ذلك ـ على حين غفلة من

---

(١) مقال كتبه المؤلف افتتاحية لمجلة « المسلمون » الصادرة فى جنيف .

(٢) كذلك الجملة المأثورة الشائعة فى المجتمع الاسلامى فى القرن السابع عند غزو التتار للعالم الاسلامى واخضاعه من أقصاه الى أقصاه .

العلم ، والدراسة والكياسة ــ استعرضنا طاقاتنا ، ووسائلنا والقوة الحربية فى بلادنا ، وسهمنا من المخترعات الحربية ، والطاقات الذرية ، فاستولى علينا اليأس والتشاؤم ، وآمنا بأننا لم نخلق الا للخضوع والخنوع ، ولنعيش على هامش الحياة ، وعيالا على الغرب ، مرتبطين ومعقودى النواصى بأحد المعسكرين المتنافسين .

وهكذا يفكر العرب ، وهكذا يفكر المسلمون فى باكستان ، وفى اندونيسيا وفى تركيا .

وهكذا يفكر الناس فى اليابان ، وفى الصين ، وفى الهند ، وفى سيام ، وفى بورما .

هذا هو التفكير « السليم » وهذا هو المنطق « السديد » ــ كما يسميه الناس ــ وهذا هو الاستنتاج العلمى المبنى على الدراسة ، والايمان بقوة الأسباب ، وطبيعة الأشياء .

ولكن هناك جماعة لا تقبل هذا التفكير ، ولا تؤمن بهذا المنطق ، بل تثور على هذا المنهج الفكرى ثورة قوية عارمة ، ان لها منهجا ــ فى العمل ــ مختصا بها ، والى هذا المنهج يرجع الفضل فى أفضل الثورات ، وأصلحها وأقواها فى التاريخ ، وفى تغير الاوضاع فى العالم تغيرا مدهشا ، وفى سعادة البشرية بعد الشقاء الطويل ، وصلاح المجتمع البشرى بعد الفساد الشامل .

ولا أمل للامم الضعيفة الا فى هذا المنهج ، ولا مستقبل للامم ــ التى تؤمن بالمبادىء ، وتحتضن الدعوات ــ الا فى هذا المنهج .

ولنفهم هذا المنهج ، وقوته ، وفضله ، ونتائجه الباهرة للعقول ، نرجع قليلا الى الماضى ، ونستوحى « الصحف الصادقة » . يولد موسى فى مصر فى بيئة قاتمة خانقة ، قد

انطبقت على بنى اسرائيـل كل الانطباق ، وسـدت فى وجوههم المنافذ والأبواب ، حاضر شقى ، ومستقبل مظلم ، وقلة عدد ، وفقر وسائل ، وذلة نفوس ، عـدو قاهر ، وسـخرة ظالمة ، لا قوة تدافع ولا دولة تحمى ، أمة مصيرها معلوم محتوم ، قد خلقت للشقاء والفناء .

ويولد موسى ، وولادته وحياته كلها تحد لفلسفة الاسباب ، ومنطـق الاشـياء ، أراد فرعـون أن لا يـولد فولد ، وأراد أن لا يعيش فعاش ، يعيش فى صندوق خشبى مسدود ، وفى ماء النيل الفائض ، وينشأ فى حضانة العدو ورعاية القاتل ، ويجـد به الطلب القوى الساهر ، فيفلت وينجو ، ويأوى الى ظل شجرة كئيبا غريبا فيجد الضيافة الكريمة ، والزواج الحبيب ، ويرجع بأهله فيلفه الليل المظلم والطـريق الموحش ، وتتمخض زوجـه فيطلب لها نارا تصطلى بها ، فيجد نورا يسعد به بنو اسرائيل ، ويهتدى به العالم ، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة ، فيجـد النجدة والمدد للانسانية كلها ، ويكرم بالنبوة والرسالة .

ويدخل على فرعون فى أبهته وسلطانه ، وفى ملأه وأعوانه ، وهو المطلوب بالامس قد تحققت عليه الجناية ، وتوجهت اليـه الدعوى ، وفى لسانه حبسة ، وفى موقفه ضعف ، فيقهر فرعون وملأه بدعوته وايمانه ، وحجته وبيانه ، ويلجأ فرعون الى سحرة مصر ليقهر بفنهم معجـزة موسى التى ظنها فنا وسـحرا ، فاذا بالسحرة خاضعون خاشـعون ، يقولون : **« آمنا برب العـالمين رب موسى وهارون »** .

ويؤمر بالخروج ببنى اسرائيل والاسراء فى الليل من ارض الظلم الى ارض النجاة ، ويتبعه فرعون بجنوده ، ويصبح موسى والبحر أمامه والعدو من ورائه ، ويخوض البحر فينفلق ويكون

كل فرق كالطود العظيم ، ويعبر موسى وقومه ، ويتبعهم فرعون بجنوده فيلتهمهم البحر الهائج .

وهكذا يهلك فرعون وقومه الأقوياء الأغنياء ، ويملك بنو اسرائيل الضعفاء الفقراء : **« وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون (١) »** .

ما هى القوة التى قهر بها موسى أعظم قوة فى عصره ومصره ، وما سر انتصار بنى اسرائيل على أعدائهم ، وما سلاحهم الذى واجهوا به العدو القاهر الكاسر ، واخضعوا به المحيط الخانق الثائر ؟ .

اقرأ قصة موسى — فى القرآن — من جديد ، تر أن السلاح الذى واجه به موسى فرعون وقومه ، وانتصر به بنو اسرائيل وتبوأوا الامامة والزعامة فى مصر وحولها ، هو « الايمان » « والطاعة » « والدعوة الى الله » ويتجلى هذا الايمان وهذه الطاعة والدعوة فى ثنايا القصة ومطاويها ، وقد تجلى هذا الايمان النبوى فى دعوة فرعون وقومه ، وبه تغلب موسى على حجاج فرعون ودهائه ، هو يريد أن يشغله عن موضوعه ويثير عليه الملأ وهو ثابت على دعوته ، ثابت فى ايمانه لا يتزعزع ولا يتزلزل ، ولا يتحول ولا يتغير ، قال فرعون : **« وما رب العالمين ؟ قال : رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين . قال لمن حوله : الا تستمعون ؟ قال : ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال :**

---

(١) الآية ١٣٧ من سورة الاعراف .

ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون . قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون (١) » .

ويسأله فرعون عن الاجيال التى مضت ، وهو موضوع شائك وسؤال محرج ، ولكن موسى يتغلب على دقة الموقف بايمانه الراسخ وحكمته النبوية ، فيقول : « **علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى (٢)** » . ويفيض فى الحديث عن الاله الواحد ــ الذى يفر منه فرعون ــ فيقول : « **الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى (٣)** » .

ويتجلى هذا الايمان فى أبرز مظاهره ، لما رأى موسى أمامه البحر المائج ، ومن ورائه العدو الهائج ، فلا متقدم ولا متأخر ، وهو وقومه بين طبقتى الرحى ، ويناديه بنو اسرائيل فى جزع وفى فزع : « **قال أصحاب موسى : انا لمدركون (٤)** » ولكنه ثابت الجأش ، قوى الايمان ، يعرف أن الله ناصر عبده ، ومنجز وعده ، يقول فى صراحة وثقة : « **كلا ، ان معى ربى سيهدين** »(٥).

ويعيش بنو اسرائيل فى مصر حياة ذل وشقاء ، وبؤس وفقر ، يعانون أفظع أنواع الظلم والاضطهاد ، وأقسى أساليب الحكم والاستبداد ، فيؤمرون بالانابة الى الله وتقوية الايمان وتحسين الصلة بالله ، ليستحقوا نصره ويوجد فى أنفسهم صلاحية الوراثة والخلافة فى الأرض : « **وأوحينا الى موسى**

---

(١) الآيات ٢٣ ــ ٢٨ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ٥٢ من سورة طه .
(٣) الآية ٥٣ من سورة طه .
(٤) الآية ٦١ من سورة الشعراء .
(٥) الآية ٦٣ من سورة الشعراء .

وأخيه أن تبوأا لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين (١) » .

ولا طاعة أعظم من طاعة موسى ، وانقياده واستسلامه للامر الالهى ، يؤمر بالتوجه الى أعظم ملوك عصره - وهو الثائر الموتور ، شديد البطش ، عظيم السلطان - فيقال : **« اذهب الى فرعون انه طغى (٢) »** ويتوجه الى بلاط جبار يدعى الربوبية ، فيدعوه الى الله الواحد القهار ، ويستمر فى دعوته وجهاده وفى وعظه وارشاده حتى يفتح الله بينه وبين قومه بالحق وهو خير الفاتحين .

لقد كان الايمان والطاعة والدعوة الى الله القوة التى واجه بها موسى « مشكلات عصره » وقهر بهاأعظم امبراطورية على وجه الأرض ، أرقاها مدنية ، وأوسعها رقعة ، وأغناها أسبابا ، وأعظمها جبروتا .

لو كان موسى - كزعيم لبنى اسرائيل - يفكر تفكير الزعماء السياسيين ، ويستعرض « الامكانيات » والوسائل التى يملكها قومه ، ويزن كل شيء فى ميزان الواقع ، والحكمة العملية ، ولو نظر - وهو الذى نشأ فى البلاط الملكى - الى العدد والعدة ، والعزة والمنعة ، والجنود والبنود ، والثروة والذخائر التى كان يملكها فرعون ، وقارن فى ذلك بين قومه وقوم فرعون ، لما جاز له - فى شريعة العقل - أن يواجه فرعون بما يسوءه ، ولتحتم عليه أن يقنع بحظه وحظ قومه ، ويرضى بالوضع السائد ، فلا ايمان ولا صلاح ، ولا عدل ولا أخلاق ، ولا تقوى ، ولا انسانية .

---

(١) الآية ٧٨ من سورة يونس .

(٢) الآية ١٧ من سورة النازعات .

ولكنه نبى يرشده الوحى ، ولـكنه مؤمن بقـوة الله ويؤمن بنصر الله ، ولكنه داعية يفكر تفكير الدعاة ، وان هذا المنهج من التفكير والعمل هو الذى غير مجرى التاريخ ، وأتى بالمعجزات ، وادهش العقول ، وحير الألباب .

ولو كان الرسول الاعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليـه وسلم يفكر تفكير الزعماء ، ويستعرض الامكانيات والوسـائل ، التى كانت تملـكها قريش ، ولو أنه نظـر الى الامبراطوريتين العظيمتين اللتين توزعتا العـالم المتمـدن المعمور : الامبراطورية الرومية ، والامبراطورية الفارسـية ، وما تتمتعان به من حول وطول ، وقد عرف قوتهما وسعة مملكتهما ـ وهو الفقيه الواعى ـ لما جاز له ـ فى شريعة العقل ـ أن يتوجه بدعوته الى الانسانية جميعا ، ويكتب الى سيدى العالم المعاصر ورئيسى الامبراطوريتين الغربية والشرقية ، يدعوهما الى الاسلام ، ولبقى الوضع الذى كان يسـود من قرون ، فمتى تملك هـذه الحفنة البشرية التى آمنت به القوة التى تضارع قوة الامبراطوريتين بل تفوقها حتى تهزمها وتدحرها ؟ والى متى كان يجب عليـه أن ينتظر ؟ وماذا كان مصير العالم ومصير الانسانية لو اتجه هذا الاتجاه وفكر هذا التفكير ؟

لقد شقيت الانسانية اذن شقاء طويلا ، وتأخـر أو توقف طلوع الصبح الصادق ، ولكان للانسانية تاريخ غير هذا التاريخ .

ولكنه صلى الله عليه وسلم نبى يؤمر فيعمل ، ويتلقى التوجيه والارشاد من السماء فينفذ ، ولكنه مؤمن يؤمن بقوة الله ويؤمن بنصره ، ويؤمن بأن الضعيف مع نصره قوى ، والقوى يخذل لأنه ضعيف ، ويؤمن بقول الله تعالى : **((ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل**

المؤمنون (١) » ويؤمن بقوله : « **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين** (٢) » ويؤمن بأن الله قد تكفل بنصر من ينصر دينه ، وينهض لاعلاء كلمته ، فقال : « **يا أيهـا الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** (٣) » وقال : « **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين : انهم لهم المنصورون ، وان جندنا لهم الغالبون** (٤) » . ويؤمن بأن الله قد وعد بالانتصار والغلبة ، والعلو والسيادة ، لعباده الذين قد تحققت فيهم صفة الايمـان ، وتجلت فيهم حقيقته ، فقال : « **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين** (٥) » ولم يعد بشيء من ذلك ــ من النصر والفتح، والظفر والغلبة ، والعلو والسـيادة ــ على الاهـواء والنزعات ، والطموح والكبرياء وحب المجد ــ الفردى أو القومى ــ وشرف الدماء والانساب والبلاد ، والعصبيات والقوميات ، فلم يتقـدم بشيء من ذلك الى العالم ولم يطلب به النصر ؛ مع أنه صلى الله عليه وسلم من أشرف الامم ، وأفضل البيوتات ، وأقدس البلاد ، انما تقدم بدعوة دينية ، ومنهج خاص للحياة لا غنى للأمم وطوائف البشر عنه على اختلاف أوطانها وألوانها ولغاتها ، فخضعت له هذه الأمم وهذه الطوائف من البشر ولم تعقها عن ذلك عصبية أو قومية ، لأنه لم يكن من دعاة عصبية أو جاهلية وانما كان دين عام الانسانية ، وداعى عقيدة ومبدأ ومنهج فاضل للحياة ، ونصره الله على قلة وضعف وفقـر ، ونصر كل من قام بهـذه الدعـوة الدينية وبهذا المنهج الخاص للحياة ، وتكفل بنصرهم الى آخر

---

(١) الآية ١٦٠ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٤٩ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٧ من سورة محمد .

(٤) الآية ١٧٣ من سورة الصف .

(٥) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران .

الدهر ، فقال : « **أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون (١) »** .

اننى لست ممن يدعو الى رفض الأسباب والتوكل السلبى ، ولست ممن يعيش فى عالم الخيال والأحلام ، ولست ممن ينكر الحاجة الى الاستعداد ، وممن لم يقرأ قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة (٢) » وقد لمت العالم الاسلامى ومن تزعمه من الشعوب والدول لوما شديدا فى كتابى « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » على التقصير فى الاستعداد الحربى والصناعى ، والتخلف عن أوربا فى ذلك ، واعتبرت ذلك سببا من أسباب شقاء الانسانية واتجاه العالم من الرشاد الى الضلال ، ومن البناء والأزدهار الى الهدم والدمار .

ولكنى أعارض هذا التفكير الذى تسلط على عقلية العالم الاسلامى فى العهد الأخير ، وهو النظر الى الأمم الاسلامية ـ فى مختلف أنحاء العالم ـ ككتل بشرية شأنها شأن القطعان البشرية الأخرى التى لا رسالة لها فى العالم ، ولا دعوة لها للأمم ، توزن فى ميزان الامكانيات والوسائل والاستعداد المادى ، وتقوم بما تملكه ، من ثروة وذخائر ، والتناسى أو الاعراض عن قوتها الكبرى « الايمان ، والطاعة ، والدعوة الى الله » .

اننا يا قوم فقراء ضعفاء متخلفون فى العلم والصناعة ، وفى الاقتصاد والسياسة ، المسافة بيننا وبين الأمم الأوربية مسافة قرون وعهود ، فليكن ذلك موضع اهتمام الزعماء والقادة ، ولينل ذلك كل عناية ورعاية .

---

(١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

ولكننا فى وقت واحد القوة الكبرى فى العالم ، فعندنا دين هو حاجة البشرية كلها ، وعندنا دعوة تنقذ العالم من نهايته الأليمة التى تنتظره وتدنو اليه ، وعندنا الايمان الذى يخلق الأمانة والشعور بالمسئولية فى النفوس ويخلق الدوافع القوية الى عمل الخير وخدمة الانسانية ، وقد حرمتها الأمم الزعيمة للعالم بعد ما ملكت كل الأسباب والوسائل لعمل الخير ، وخدمة الانسانية ، فأصبحت هذه الوسائل ضائعة بل متجهة الى القضاء على المدنية والانسانية ، وحاجة أوربا فى اقتباس هذا الايمان منا أشد وأعظم من حاجتنا الى الاقتباس من صنائعها وعلومها ، لأن هذا الايمان هو الاساس ، وهو الموجه وهو الضابط ؟ وعندنا شريعة تحل جميع المشكلات والأزمات التى يواجهها المجتمع البشرى فى القرن العشرين ، وعندنا ـ أولا وآخرا ـ نبى أرسل رحمة للعالمين « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط مستقيم (١).

ألا فلنتجه بهذه الدعوة الى أوربا الحائرة التائهة باخلاص ونزاهة ، وتوجع وشفقة ، وبقوة وثقة وايمان ، ولننظر الى أنفسنا كدعاة ومنقذين ، مبشرين ومنذرين ، ونستخدم هذه القوة الجبارة فى تغيير مصيرنا ومصير العالم ، ولنحتل بفضلها مكانة الزعامة والقيادة فى ركب الانسانية ومصاف الأمم ، بعدما عشنا زمنا طويلا فى مؤخر الركب وفى صف التلاميذ والحاشية ، ولنتجه بهذه الدعوة المقدسة المنصورة التى اما تقبل فترفع وتؤمن ، وأما ترفض فتهلك وتقهر ، بهذه الدعوة التى أوجب الله على نفسه نصرها ونصر رجالها .

ولنتجه بهذه الدعوة الى مجالات مهجورة ، وكنوز مطمورة فى آسيا وفى افريقية ، الى الشعوب التى ملكت الوسائل والعلم

---

(١) الآية ١٦ من سورة المائدة .

والصناعة ، والبلاد الواسعة ، والعقول الخصــبة ، والســواعد القوية ، وجهلت الدين والغايات الصالحة ، والمبادىء الفاضلة ، وهى مستعدة لقبول هذه الدعوة ، واذا قبلت هذه الدعوة وفقهتها وأخلصت لها تغير مجرى التاريخ من جديد ، كما تغير فى العهــد الأول باسلام الفرس والترك والديلم ، وفى العهد الأوسط باسلام التتار والمغول .

الا اننا فى حاجة الى ثورة ، الى ثورة فى التفكير والمنهج .



بين الجباية والهـداية [1]

الدول والحكومات قسمان : دولة شعارها الجباية ، ودولة شعارها الهداية ، وكل لها طابع خاص ونفسية خاصة ، ورجال ممتازون ، ولكل نتائج متميزة .

فميزان الأشياء ومناط الاحكام فى دولة الجباية هو تضـخم الميزانية وكثرة الدخل والايراد ، ورفاهية رجال الحكومة واحتفال الحضارة وزهو المدنية ، وان كان ذلك بامتصاص دماء الفقـراء ، وشقاء الفلاحين والعملة ، والضرائب المجحفة والمكوس المرهقة ، فلا يعنى هذا الضرب من الحكومة الا بما يزيد فى مواردها وماليتها، وبما يهيىء لها أسباب الفخار والزينة والابهة ، بما يهيىء للأمراء والوزراء ، وأبنائهم وأبناء أبنائهـم ، والمتصـلين بهـم ورجال الحكومة وأسرهم وخدمهم أسباب الترف والتنعم والبذخ ، وبما يبنون به قصورا فاخرة ، ويشترون به أملاكا واسعة ، فى داخل البلاد وخارجها .

تغفل هذه الحكومة تربية الجمهور الدينية والخلقية ، وتعطل الحسبة والرقابة على الأخلاق والنزعات ، وتتغافل عن كل ماليس سبيلها ، وما لا يجر عليها فائدة مالية أو قوة سياسية ، وقـد تبيح منكراً أو محرما اذا كانت تجنى منه نفعا ، وتحرم مباحا اذا كانت تخاف منه خطرا سياسيا أو خسـارة ماليـة ، ولا يزال الجشع والنهامة للمال تدفعها وتزين لها خطتها ، حتى تفرض ضرائب على العبادات ، وعلى الموت والحياة ، وهكذا تتحول من

---

(1) أصل هذا المقال رسالة شخصية وجهت الى ملك من ملوك العرب ، ثم طبعت كرسالة عامة موجهة الى جميع المسلمين ، وقادة الرأى والفكر فى العالم الاسلامى .

حكومة ساهرة على مصالح الجمهور وراحتهم ومن مربية وحارسة للأمة ، الى شركة تجارية كبيرة لا يهمها الا جمع الأموال وزيادة الأرباح .

أما الدولة التي شعارها الهداية ، فمهمتها الدعوة الى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومعيارها تحسن أخلاق الجمهور ، وسمو روحهم وتحليهم بالفضائل واقبالهم على الآخرة، وزهدهم في الدنيا والقناعة في المعيشة ، واجتنابهم المحرمات والمعاصي ، وتنافسهم في الخيرات ، ولو كان ذلك على حساب ميزانيتها وخسارة ماليتها ، فتنصب الوعاظ ، وترسل الدعاة ، وتشجع الحسبة ، وتمنع الخمور ، وتنكر على الفجور ، وتحرم الملاهى والمعازف ، وتطارد المستهترين والخلعاء ، وتمنع كل ما يفسد على الناس عقيدتهم وأخلاقهم ، ويفسد الحياة المنزلية ، وتفص في حكمها المساجد ، وتقفر الحانات ، ويزدهر الدين والتقوى ، وتضمحل المعاصي والجنايات ، ويقوم أهل الدين والصلاح وينشطون ويتحمسون ، ويتوارى الفجار والملحدون وينكمشون . ويكون ما وصفه الله تعالى : ((الذين ان مكناهم في الأرض : أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور (1))) .

يمتاز جهاز حكومة الهداية بأسره عن جهاز حكومة الجباية بأسره ، يمتاز عنه في النزعات والروح ، والسيرة والمعاملة والسلوك ، فنرى في الأول التطوع والاحتساب ، وروح الخدمة والايثار ، والامانة والتضحية والوفاء ، بينما نرى في رجال حكومة الجباية معاكسة القانون ورجاله والاجتهاد في معاجزته والتفلت منه ، والكبر والتجبر ، والأثرة والخيانة ، والنفاق والزور ، وفشو

(1) الآية 41 من سورة الحج .

الرشوة الى حد يدعو الانسان بين الركن والمقام أن لا يبتلى منهم ، فلا ينال الانسان حقه من العدل والراحة ، ولا يتمتع بحقوقه المدنية الا اذا رضخ من ماله لهذا وقدم طعمة لذاك . ويستفحل الأمر ويجل الخطب ، حتى لا يرى أحد فى هذه الحكومة أنه خادم أمة وأمين حكومة ، لا يعد نفسه الا جابيا ـ ولكن لنفسه وعياله ـ قد منحته الحكومة فرصة جمع الأموال ، فلا يريد أن تفلته هذه الفرصة ويتخلف عن قافلة الجباة الشخصيين ، وقد اشتد بها الجد ، وجد بها السير .

لقد سبق فى التاريخ أمثلة لكل من حكومات الجباية والهداية. أما حكومات الجباية فلا تحتاج الى تمثيل ولا الى شرح وبيان ، فانها هى السائدة الفاشية فى الماضى والحاضر ، وفى الشرق والغرب ، وقد جربها الانسان وعرفها فى كل عصر ، أما حكومات الهداية فهى نادرة جدا ، فلنضرب لها مثلا :

بعث محمد صلى الله عليه وسلم فدعا الناس الى الاسلام فالتف حوله : ((**فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذاً شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين . فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا (١)**)) . وكان هؤلاء الفتيان هدف كل قسوة وظلم ، واضطهاد وبلاء وعذاب ، وقد قيل لهم من قبل : ((**احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (٢)**)) فصمدوا لكل ما وقع لهم وثبتوا كالجبال ، وقالوا : ((**هذا ما وعدنا الله**

---

(١) الآية ١٤ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٣ من سورة العنكبوت .

ورسوله وصدق الله ورسوله (١) » . حتى إذن الله فى الهجرة ، ولم تزل الدعوة تشق طريقها وتؤتى أكلها حتى قضى الله أن يحكم رجالها فى الأرض ، ويقيموا القسط ، ويخرجوا الناس من الظلمات الى النور ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، فقد عرف أنهم اذا تولوا وسادوا **« أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر »** .

وهكذا جاءت الدعوة بالحكومة كما تأتى الأمطار بالخصب والزرع ، وكما تأتى الاشجار بالفاكهة والثمر ، فلم تكن هذه الحكومة الا ثمرة من ثمرات هذه الدعوة الاسلامية . ولم تكن هذه العزة والقوة الا نتيجة ذلك العذاب الذى تحملوه من قريش وغيرهم ، وذلك الهوان الذى لقوه فى مكة وغيرها .

جاءت الحكومة بما يتبعها من عزة وشوكة ، ورجال وأموال ، وكنوز وخزائن ، وجباية وخراج ، ورفاهةونعيم ، وكان المجال واسعا جدا لجمع الأموال وحكم الرجال ، ورفاهية الحال اذا اختاروا طريق الملوك والسلاطين فى فرض الضرائب الكثيرة ، والاتاوات المتنوعة والمكوس الجائرة .

التفت القوم فاذا دولتهم الوليدة على مفترق الطرق ـ طريق الجباية وطريق الهداية ـ هنالك سمعوا هاتفا يقول : ويحكم ان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يبعث جابيا وانما بعث هاديا وأنتم خلفاؤه » فلم يترددوا فى ايثار جانب الهداية على جانب الجباية ، واتخاذ الدعوة والهداية شعارا ومبدأ لحكومتهم فكان ذلك .

لقد علموا أنهم لو آثروا جانب الجباية وأطلقوا أيديهم فى أموال

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الاحزاب .

الناس ، واسترسلوا الى النعيم ، ورتعوا فى اللذات ، لم يحل بينهم وبين ذلك أحد ، ولم يقف فى سبيلهم واقف . ولكنهم علموا أنهم لو فعلوا ذلك فقد غشوا اخوانهم الذين سبقوهم بالايمان ، وقضوا نحبهم بدون أن يأكلوا ثمار غرسهم ، لقد خانوا أولئك الذين لم يعرفوا الا الجهاد والتعب والجوع والسغب ، ولقد وصلوا الى الحكومة على جسر من متاعبهم وايثارهم . أفيجوز لهم أن يستغلوها لمصلحتهم وشهواتهم ، وأبنائهم ، ويتمرغوا فى النعيم ، ويسرفوا فى الأكل والشرب ؟ لقد ظلموا اذن عثمان ابن مظعون ، وحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وأنس ابن النضر ، وسعد بن معاذ ، وكثيرا من رفقتهم الذين لم يروا شيئا من الفتوح والغنائم ، ولم يشبعوا أياما متوالية ، وقف القوم ولم يطب لهم الأكل والشرب ، وأرادوا أن يلحقوا باخوانهم ولم يأخذوا من الدنيا الا البلاغ .

تأسست دولة الاسلام وفتحت فارس وبلاد الروم ، والشام ونقلت الى عاصمة الاسلام ـ المدينة المنورة ـ كنوز كسرى وقيصر ، وانصبت عليها خيرات المملكتين العظيمتين ، وانهال على رجالها من أموال هاتين الدولتين وطرفها وزخارفها ، ما لم يدر قط بخلدهم ، وقد انقضى على اسلامهم ربع قرن وهم فى شدة وجهد من العيش ، وفى جشوبة المطعم وخشونة الملبس ، لا يجدون من الطعام الا ما يقيم صلبهم ، ولا من اللباس الا ما يقيهم من البرد والحر ، فاذا بهم اليوم يتحكمون فى أموال الأباطرة والأكاسرة ، فاذا أراد الواحد منهم أن يلبس تاج كسرى وينام على بساط قيصر لفعل ، لقد كانت ـ والله ـ هذه محنة عظيمة ، تزول فيها الجبال الراسيات ، وتطير لها القلوب من جوانحها ، وتعمش لها العيون ، ولكنهم سرعان ما فطنوا أنهم ما وقفوا بين الفقر والغنى فحسب ، بل أنهم خيروا بين أن يتنازلوا عن دعوتهم وامامتهم ومبادئهم ، وينفضوا منها يدهم فلا يطمعوا فيها أبدا ، وبين أن

يحافظوا على روح هذه الدعوة النبوية وعلى سيرة رجالها اللائقة بخلفاء الأنبياء والمرسلين ، وحملة الدعوة المؤمنين المخلصين .

كان لهـــم أن يؤسسوا ملكا عربيـــا عظيما على أنقاض الدولة الرومية والفارسية ، وينعموا كما نعم ملوكها وأمراؤها من قبل، فقد ورثوا امبراطوريتين : الفارســـية والروميـــة ، وجمعوا بين موارد دولتين . فاذا كان كسرى يترفه بموارد فارس فقط ، واذا كان هرقل يبذخ بموارد الروم فقط ، فهذا عمر بن الخطاب يمكنه أن يترفه بموارد الامبراطوريتين ويبذخ بذخا لم يبذخه أحدهما .

كان له ولاصحابه كل ذلك بكل سهولة ، ولكنهم ســـمعوا القرآن يقول : « **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين (١)** » .

وكأنهم يسمعون نبيهم صلى الله عليه وسلم يقول قبل وفاته :

« **فوالله لا الفقر اخشى عليكم ، ولكن اخشى ان تبسط عليكم الدنيا ، كمـــا بسطت على من كان قبلـــكم ، فتنافســـوها كمـــا تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم (٢)** » .

فهتفوا عن آخرهم قائلين :

اللهم لا عيش الا عيش الآخرة . فاغفر للانصار والمهاجرة ، وهكذا حافظوا على روح الدعـــوة الاســـلامية وســـيرة الأنبيـــاء والمرسلين ، وعاشوا فى الحكومة كرجال الدعوة ، وفى الدنيا كرجال الآخرة ، وملكوا أنفسهم فى هذا التيار الجارف ، الذى ســـال قبلهم بالمدنيات والحكومات ، والشعوب والأمم ، وسال بالمبادىء والأخلاق ، والعلوم والحكم .

---

(١) الآية ٨٣ من سورة القصص .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

مازال الناس يعدون اقتحام المسلمين دجلة بخيلهم وجندهم تحت قيادة سعد بن أبى وقاص ووصولهم الى الشط الثانى من غير أن يصابوا فى نفس أو مال أو متاع حادثا غريبا من أغرب ما وقع فى التاريخ ، ان الحادث لغريب ، ولكن أشد منه غرابة وأدعى للعجب أن المسلمين فى عهد الخلافة الراشدة وعصر الفتوح الاسلامية الأولى خاضوا بحر مدنية الروم وفارس وهو مائج هائج ، وعبروه ولم يفقدوا شيئا من أخلاقهم ومبادئهم وعاداتهم ، ووصلوا الى الشط الثانى ، ولم تبل ثيابهم ، ولم يزل الخلفاء الراشدون وأمراء الدولة الاسلامية من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم محتفظين بروحهم ، ونفسيتهم وزهدهم وبساطتهم ، فى المعيشة وتخشنهم فى أوج الفتوح الاسلامية .

حكى الطبرى دخول الهرمزان المدينة ، ومواجهته لعمر رضى الله عنه قال : هيأوا الهرمزان فى هيئته ، فألبسوه كسوته من الديباج الذى فيه الذهب ، ووضعوا على رأسه تاجا يدعى الآذين مكللا بالياقوت ، وعليه حليته كيما يراه عمر والمسلمون فى هيئته ، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر فى منزله ، فلم يجدوه فسألوا عنه ، فقيل : جلس فى المسجد لوفد قدموا عليه من الكوفة ، وانطلقوا يطلبونه فى المسجد فلم يروه ، فلما انصرفوا مروا بغلمان من أهل المدينة يلعبون ، فقالوا لهم : ما تلددكم تريدون أمير المؤمنين ؟ فانه نائم فى ميمنة المسجد متوسدا برنسه ، وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة فى برنس ، فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلوه نزع برنسه ثم توسد فنام . فانطلقوا ومعهم النظارة حتى اذا رأوه جلسوا دونه ، وليس فى المسجد نائم ولا يقظان غيره ، والدرة فى يده معلقة ، فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا ، وجعل الوفد يشيرون الى الناس أن أسكتوا عنه ، وأصغى الهرمزان الى الوفد ، فقال : أين حرسه وحجابه عنه ؟ قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا

كاتب ولا ديوان ! قال : فينبغى له أن يكون نبيا . فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء ، وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة ، فاستوى جالسا ثم نظر الى الهرمزان فقال : « الهرمزان » ؟ قالوا : نعم : فتأمله وتأمل ما عليه وقال أعوذ بالله من النار وأستعين الله ، وقال : الحمد لله الذى أذل هذا وأشياعه ، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فانها غرارة ، فقال الوفد : هذا ملك الاهواز ، فكلمه . فقال : لا ، حتى لا يبقى عليه من حليته شىء ، فرمى عنه بكل شىء عليه الا شيئا ليستره ، وألبسوه ثوبا صفيقا فكلمه (١) .

ويصف ضرار بن ضمرة على بن أبى طالب فى خلافته بعد وفاة على لمعاوية ، ويقول : « انه ليستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان — والله — غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب (٢) ، كان والله كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ، ويبتدئنا اذا أتيناه ، ويأتينا اذا دعوناه ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه ، وقد مثل فى محرابه ، قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، وكأنى أسمعه وهو يقول : « يا دنيا أبى تعرضت ،أم لى تشوفت ؟ هيهات هيهات !! غرى غيرى ، قد بتتك ثلاثا لا رجعة لى فيك . فعمرك قصير ، وعيشك حقير وخطرك كبير . آه ! من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق (٣) » .

---

(١) تاريخ الطبرى (ج ٤ ص ٣٧) .

(٢) ماجشب : ما غلظ وخشن .

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزى ج ١ .

كان شعار الدولة الاسلامية الأولى الهداية والدعوة الى الله وخدمة النــاس ، فكانت الدولة تخسر أموالا عظيمة فى سـبيل الاخلاق والدين ، وكانت اذا خيرت بين أرواح الرجال ومبالغ من المال اختــارت الأرواح وخسرت الارباح ، وتطيب بذلك نفســا وتقر به عينــا ، واذا كان عكس ذلك فكســبت الأموال وخسرت الرجال ، حزنت لذلك وحزن المسلمون كحزنهم على ملك زائل وسلطان راحل ، وقد فضل الخلفاء الراشدون وخامسهم عمر ابن عبد العزيز رحمه الله ان يدخل المجوس والنصارى فى الاسلام ويعفوا من الجزية ، فيخسر بيت مال المسلمين مقدارا عظيما من المال ، ويكسب الدين الاسلامى والامة الاسلامية رجالا يتخلصون من النار ، واذا كسب وربح بيت المال على حساب الاسلام حزنوا حزنا شديدا .

حدث الطبرى عن زياد بن الزبيدى ، قال : « جمعنا فى مصر ما فى أيدينا من السبايا واجتمعت النصارى ، فجعلنا نأتى بالرجل ممن فى أيدينا ثم نخيره بين الاسلام وبين النصرانية ، فاذا اختار الاسلام كبرنا تكبيرة هى أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية ، قال : ثم نحوزه الينا . واذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه اليهم ووضعنا عليه الجزية وجزعنا من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه رجل خرج منا اليهم [1] » .

وهكذا انتشر الاسلام ، وانتشرت الأخلاق الفاضلة فى عقود من السنين من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، وتغلغلت الدعوة الاسلامية فى أحشاء المجتمع البشرى . لم يتمتع العالم الاسلامى بخلافة عمر بن عبد العزيز الا سنتين وبضعة شـهور ، ولـكنه بحرصه على الدعوة ومحافظته على شـعار الهداية ، وســيرة

---

(١) تاريخ الطبرى (ج ٤ ص ٢٣٧) .

خلفاء الانبياء عليهم السلام تمكن من التأثير فى القلوب والعقول ، وقلب تيار المدنية ، واظهار الدين واخماد الكفر والفسق ، والقضاء على رسوم الجاهلية ، ما لم تتمكن منه دول اسلامية طويلة الأعمار لتراوحها بين الهداية والجباية ، وتفضيلها الجباية فى اكثر الأحيان على الهداية .

وكانت المدن الاسلامية الكبرى وعواصم الاسلام مركز دعوة وهداية بحيث اذا دخلها الانسان عرف أنه يمشي فى مركز الاسلام ويتنفس فى جوه ، فيرى الحدود قائمة وأحكام الشرع نافذة ، ولا يجد أحدا يتهاون فى أمر من أمور الدين ، ويستخف به أو يجاهرباثم ومعصية ولا يرى بدعة ولا فجورا ، ولا دعارة ولا خدعة ، ولا يسمع برشوة ولا خيانة ولا ما ينافى روح الاسلام ، ويسمع الدعوة الى الله والى الدار الآخرة والى الفضيلة والتقوى واتباع الكتاب والسنة ، والاجتناب من الشرك والبدعة ، والتمسك بفضائل الدين فى كل مكان ، ويرى العمل بذلك فى الطرقات والمجامع ، وبيوت الناس ودواوين الحكومة ، فيتشبع بروح الدين ويتضلع ايمانا وحماسة ، وفقها فى الدين ومعرفة بأحكامه وشرائعه وحبا لاهله ، فلا يخرج الا وقد استفاد الايمان والعلم والتصلب فى الدين والثقة برجاله وممثليه .

واذا دخلها أجنبى أو حديث عهد بالاسلام ، عرف مزايا الحياة الاسلامية وفضل حكومة الاسلام ، وآثر الاقامة فيها ، وكره أن يفارقها ، ويعود الى دار الكفر كما يكره أن يقذف فى النار .

أما الحرمان فقد كانا فى حكومة الاسلام ــ المؤسسة على مبدأ الهداية ــ مدرسة الدين ومهد الحضارة الاسلامية ، تتمثل فيهما الحياة الاسلامية بكمالها وجمالها ، ويأتى اليهما المسلمون من كل ناحية من نواحى العالم الاسلامى ، ومن كل فج عميق ، فيشهدون

منافع لهم ويتفقهون فى الدين ، وينذرون قومهم إذا رجعوا اليهم ، ويحتجون فى بلادهم بما رأوه فى الحرمين ، فيكون ذلك حجة لمحافظة الحجاز على الدين والسنة وحرص حكومتها على تمثيل الحياة الاسلامية فى مركز الاسلام ومنبعه .

ثم أتى على المسلمين حين من الدهر نسوا أن الحكومة فى الاسلام لم تكن الا جائزة الدعوة والجهاد فى سبيلها ، ولولا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته الى الله ، وما لقى فى مكة والطائف من قريش والقبائل ، ولولا الهجرة والاختفاء فى غار ثور ، والرباعية المكسورة يوم أحد ، ولولا ما صنع بحمزة يومئذ ولولا قتلى بئر معونة ومصلوب الانصار (١) ، لما دانت الدنيا للعرب ، ولا كانت دمشق ولا بغداد ، ولا كان لبنى مروان أن يجبوا خراج الروم وفارس ، ولا كان للرشيد أن يقول لسحابة مرت به : « أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك » .

أسس ملوك المسلمين بعد الخلافة الراشدة دولهم على مبدأ الجباية السياسية ، وأهملوا الدعوة الى الله والى دار السلام ، وعطلوا الحدود وأبطلوا الحسبة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، ولم تعد مراكز الاسلام مدرسة الدين ومرآة لمدنيته واجتماعه ؛ بل أصبحت تغرس الشك والنفاق فى قلوب الوافدين وتزعزع عقيدتهم وثقتهم بالدين وأهله ، وأصبح القاصدون من مختلف أنحاء العالم الاسلامى يكتسبون منها استخفافا بشعائر الاسلام ، ورقة فى الدين ، ووهنا فى العمل ، وسوء ظن بممثلى الاسلام ، ورجعوا يحتجون بالاوضاع

---

(١) هو خبيب بن عدى بن مالك الذى قتله بنو الحارث بن عامر ، وبضعوا لحمه ، وحملوه على جذعة ، وهو القائل :

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

الفاسدة فى مراكز الاسلام ، وبالفوضى الدينية ، فكانت داهية عظيمة على رجال الاصلاح والدعوة فى الاقطار الاسلامية ، وفتنة كبيرة .

ليس العالم الاسلامى اليوم بأشد افتقارا الى شىء ، منه الى حكومة تمثله تمثيلا صحيحا ، وتقوم على أساس الدعوة والهداية ، والنصيحة والخدمة ، فان الاسلام لا يؤثر فى عقول الناس ، ولا يشفى المتفحصين حتى تكون له رقعة فى الأرض ، تتمثل فيها حياته وتتجلى فيها مدنيته واجتماعه ، وتظهر فيها نتائج دعوته وتعاليمه ، فاذا كان ذلك ولو فى رقعة صغيرة كان على الاسلام اقبال عظيم لم يعهد من قرون .

وليس العالم الانسانى بأقل افتقارا من العالم الاسلامى لمثل هذه الحكومة التى شعارها الهداية والاصلاح ، لا الجباية والكفاح، فان الانسانية العليلة جريحة لا يسعفها اليوم الا قيام هذه الحكومات التى تؤسس على أساس الفضيلة والدين ، واحترام الانسانية ، وايثار الأرواح على الأرباح ، والأخلاق على الأعلاق ، وكسب الرجال على كسب الأموال ، فاذا تأسست هذه الحكومة ــ مهما كانت صغيرة ومهما كانت مواردها ضعيفة ــ كان ذلك حادثا غريبا يستحق كل تنويه واشادة ، وقام كبار السياسيين وأصحاب اليراع ، وقادة الفكر يشيرون اليها بالبنان ويضربون بها الأمثال ، ويؤلفون عنها مؤلفات ، وأصبح الناس يأوون اليها كما يأوى الغرقى الى جزيرة فى البحر ، لينعموا فى ظل حكومتها ، وينفضوا عنهم غبار الظلم والفتن ، ويتنفسوا من متاعب المدنية المعقدة المزورة ، والحكومات الجابية الجائرة ، ولكانت هذه الحكومة غرة فى جبين الدهر ، وشامة بين الحكومات والدول .

ان الانسانية قد جربت حكومات الجباية على اختلاف انواعها وأسمائها ــ من شخصية وديمقراطية ، ورأسمالية

واشتراكية وشيوعية ـ فوجدتها بنات علات ، لا تختلف فى أصلها ومبدئها ، وروحها ونزعتها ، وقلبتها على كل جانب فلم تر منها الا شرا ومـرا ، ولم تر اختلاف الأسـماء يغنى عن شيء ، واذا تأسست جديدة باسم جديد ، نادى لسان الحقيقة فى لفظ أبى العلاء المعرى :

الا انمـا الأيام ابنـاء واحـد وهذى الليـالى كلهـا أخوات
فلا تطلبن من عنـد يوم وليلة خلاف الذى مرت به السنوات

واذا ضمت الى هذه الحكومات المعدودة بالمئات حكومة جديدة لا تختلف عن اخواتها الا انها يراسها مسلم أو يديرها عـدد من المسلمين ، لم تكن بدعا ولم تكن شيئا طريفا ينوه به أو يشـار اليه بالبنان ، او تعقد به الآمال ، فان هنالك حكومات تفوق هذه الحكومة عشرات من المرات فى طول مساحتها وضخامة ميزانيتها ، وكثرة انتاجها واصدارها ، وفى جيشها وأساطيلها وبوارجهـا الحربية وعدد الطائرات ، وكثرة المصانع ورقى الصناعة والتجارة واحتفال المدنية والحضارة ، وحسن الادارة وانتشار العلم فى طبقات الشعب وقلة الأمية ، الى غير ذلك مما تمتاز به الحكومات الأوربية .

ان قيام دولة للمسلمين فى بقعة من بقاع الأرض فرصة سعيدة نادرة لا تسنح فى كل حين ، ومثل هذه الفرص ـ كما يعـرف المطلع على السنن الالهية وعلى تاريخ الأديان والدعوات الاصلاحية ـ قد تسنح بعد قرون ، وتكون من فلتات الدهر ، وفى قصرها كوميض البرق فى ليلة مظلمة ، وتكون امتحانا عظيما لرجالها ، كيف يستخدمون هذه الفرصة لدعوتهم ومبادئهم الدينية على حساب مصالحهم الذاتية ، وراحتهم ولذائذهم ، فاذا انتهزوا هذه الفرصة وعرفوا قيمة الوقت ،واحسنوا تمثيل هذه العقيدة والدين الذىينتسبون اليه وحسن ظنالناس بهم ، وصدقوهم فىما يقولون

فقد خدموا دينهم وأنفسهم خدمة باهرة ، وان كان غير ذلك فأساءوا استعمالها واستغلوها لمصالحهم الشخصية على حساب الدعوة الدينية ، ورجالها المخلصين وجهودهم فى سبيل نشر هذه الدعوة ، وقيام هذه الحكومة ، كما فعلت الدولة الأموية والعباسية ودول كثيرة ، فقد ضيعوا الفرصة وخسروا دورهم ، وخسرت معهم الدعوة التى وصلت أسبابها بأسبابهم دورها ، وما يعلم أحد متى يعود هذا الدور ، وهل يعود أو لا ؟ فقد شهد التاريخ أمما وجماعات كثيرة ضيعت فرصة حكمها وسلطانها ، ولم تنتفع بها ، وانتهى دورها القصير أو الطويل فوقفت مع المتفرجين المنعزلين وبقيت تنتظر دورها فى حلبة الأمم ، وتعض على تفريطها ببنان الحسرة والندم .

هذا والى الحكومات الاسلامية ومن كان على رأسها أن ينتهزوا الفرصة ويحرزوا قصب السبق ، ويبلغوا بهمتهم وعنايتهم الى حيث لا يبلغ اليه كبار الصالحين والأتقياء بعبادتهم وزهدهم ، وذلك بما آثرهم الله من حول وطول ، ونفوذ وسلطان ، وفرص لا تتأتى لغيرهم ، ولهم أن يصلوا فى خدمة هـــذا الدين واعادة شبابه ، واصلاح المجتمع وتغيير اتجاهه ، من الجاهليـــة الى الاسلام فى يوم واحد ـ اذا ارادوا بذلك وصحت عزيمتهم وصدقت نيتهم ـ ما لا يصل اليه المصلحون ، والمؤلفون والعاملون فى أعوام وقرون ، وينالوا من رضى الله وثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ما يغبطهم عليه كثير من العباد والمتقين ، وعباد الله الصالحين .

وما أطلق الناس على عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكبير والخليفة الراشـــد الا بتغييره مجرى الحكومة من الجباية الى الهداية ، والاصلاحات التى قام بها ، وبرجولته وعصاميته فى

سبيل مبداه ، ولو وزن ما تنازل عنه من نعيم زائل ومتاع فان ، وأنواع من لباس وطعام ، ودواب وأنعام ـ كان لا بد أن يتركها يوما من الأيام ـ لو وزن ذلك كله بما اكتسب من نعيم لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وما يرجو من مرافقة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه والالتحاق بحزبه ، وما جعل الله له من لسان صدق فى الآخرين ، لرجح ما اكتسب رجحانا واضحا ، وعد من كبار الأذكياء وعقلاء العالم .



دعوتان متنافستان

لم تزل فى الدنيا منذ وجدت دعوتان متنافستان متصارعتان ، دعوة تدعو الى اتباع النفس وتحكيمها ، والى حرية الانسان المطلقة التى لا تقف عند حد ـ الا اذا اضطرت الى ذلك ـ وان كان فى غضون هذه الحرية واثنائها مئات وآلاف من أنواع الرق والعبوديه ودعوة تقول : ان الانسان عبد لله ، مكلف ومسئول أمامه ، وتدعو الى اتباع الوحى من الله وشرائع الأنبياء .

الدعوة الأولى هى « الجاهلية » فى مصطلح الاسلام الواسع ، والدعوة الثانية هى دعوة الاسـلام نفسه ، واقتسمت هاتان الدعوتان أمم العالم وأجياله ، ولم تزل تتداول قيادتهما وتمثيلهما من حين الى حين ، وليس تاريخ الأديان والعقل والأخلاق ، الا حكاية هذا الصراع المستمر ، والنزاع الدائم ، وذلك أكبر صراع واوسعه شهده العالم فى عمره الطويل .

ومنذ ثلاثة عشر قرنا ونصف ، اختار الله لقيادة الدعوة الثانية ـ الاسلام ـ أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتب لهم الامامة فى ذلك الى يوم القيامة .

كذلك لم تزل تمثل الدعوة الجاهلية وتراسها امم وحضارات جاهلية فى عصورها ودوائرها ، حتى قضى ربك أن تتولى زعامتها وتحمل رايتها أمم أوربا النصرانية قبل نحو قرنين ، وانما رشحها لهذا المنصب وجعلها حاملة لرسالة الجاهلية فى العالم مجاهدة فى سبيلها ، سوء تمثيل النصرانيـة المحرفة للدين المطلق ، ورهبانيتها وعجزها عن حل القضايا الانسانية والمعضلات البشرية

ثم سوء تمثيل علمائها وكهنتها ، وقسسها للنصرانية نفسها ، وبما حالوا بين أمتهم وبين الرقى والتقدم ، وبما أذاقوا العلماء الأحرار والمكتشفين من أنواع العذاب التى تقشعر لها الجلود ، وتتفطر منها مرارة الانسان مما حفظه لنا تاريخ الصراع بين الدين والمدنية والدين والعقل ، والدين والعلم فى أوربا ، زد الى ذلك كله تهور الثائرين على النظام القديم وطيشهم ، فكان عاقبة ذلك أن أصبحت أمم أوربا وهى المتحفزة للنهوض ، الطامحة الى الرقى تبغض الدين مطلقا ، وتتحرر من كل نظام قديم ، وتعادى كل دعوة دينية خلقية ، وترى فيها حجر عثرة فى سبيلها ، وفى أصحابها عدوا لدودا للرقى الانسانى .

وعلى كل تحولت أمم أوربا جاهلية مادية محضة ، وكان هذا التحول من أتعس الحوادث التى وقعت فى التاريخ والذى قد جر على الانسانية شقاء طويلا وويلا عظيما ، ولكنه كان واقعا لا محالة لأسباب طبعية عقلية .

وتقدمت أمم أوربا الفتية المتحمسة لغزو العالم وفتحه ، وقد أخذت له أهبته وأعدت له عدته فكان بحكم الطبيعة أن تصادم ممثلى الدعوة الثانية المضادة لها ، وهم المستولون على أجمل رقع العالم المتمدن المعمور ، وعلى أهم بقاع الأرض سياسيا وجغرافيا ، وأخصبها وأثراها اقتصاديا ، وكان بديهيا أن يقع أول صراع وأكبره بين هاتين الفئتين ، فكان ذلك !

كان ذلك والمسلمون منذ أمد بعيد ، قد فقدوا روح الرسالة التى كانوا يحملونها ، والتى قد أصبحوا بقوتها سيلا جارفا جبارا لا تقاومه الحشائش ، ولا تقف فى وجهه الصخور ، وقوة المسلمين وروحهم دائما من الرسالة والدعوة ، فأضحوا لا يحملون رسالة الاسلام الى العالم ، ولا يدعون دعوة دينية تنفخ فيهم الحماسة

والفتوة ، ويأتون لها بخوارق ومعجـزات ، وتفتح لهم هـذه الرسالة قلوبا وعقولا ، وتسخر لهم ممالك ودولا ، وأصبحوا جيلا من الناس كسائر الأجيال ، يرى ما يحدث فى العالم من خير وشر وما يسود فيه من حق وباطل ، هادئا مطمئنا كمتفرج أو كعاجز ليس له من الأمر شىء .

وفقدوا الايمان والحماسة الدينية ، ففقدوا القلوب التى كانوا يلقون بها عـدوهم ، وسـلاحهم الذى كانوا يقارعون به فيهزمون أضعافهم فى العدد والعدد ، وأصبحوا كسائر النـاس لا يمتازون بمزيد قوة ولا بزائد يقين ، يألمون كما يألمون ولا يرجون من الله ما كانوا يرجون .

وفقدوا الأخلاق والفضائل التى كانت لهم قوة روحية وسلاحا ماضيا فى معترك الحياة ، دانت بها لهم الجبابرة ، ولانت بهـا صخور القلوب ، واستبدلوا بها عيوبا وأدواء خلقية واجتماعية ، أخذوها من الأمم الجاهليـة المنحطة التى عاشروها وسرت فيهم أيام ترفهم وانحطاطهم الخلقى والاجتماعى ، فكانت كدابة الأرض تأكل منسأتهم ، وتنخر الدعائم التى قام عليها بناؤهم .

ونضب معين علومهم ، وجمدت قرائحهم وعقولهم ، وحرموا الاجتهاد ، والتفكير ، وقوة الاكتشاف والابداع ، ومنى علماؤهم بجمود عقلى وركود علمى ، لا يزيدون فى ثروة العلم ، ولا يفتحون للعقل أبوابا ومنافذ جديدة ، ولا ينظرون فى علوم الطبيعة والكون بينما كانت أوربا تسخر لمصالحها قوى الطبيعة ، ويكشف علماؤها عن أسرار الكون ، ويتخـذ عاملوها نفقا فى الأرض وسـلما فى السماء .

أما الأمراء والملوك المسلمون فقد تركوا الجهاد فى سبيل الله منذ قرون ، واشتغلوا عنه بحروب بغضاء ومنافسة ، وشهوات ومطامع ، حتى دهم الاسلام الزحف الصليبى فلم يقم له الا صلاح

الدين الأيوبى وبعض الأفراد المتصلين به . ومرت كارثة الأندلس وكأن لم يكن شيء ، وزحف التتار والمغول ــ ذلك الجراد المنتشر ــ فنهكوا قوى المسلمين ، وزادوهم وهنا على وهن .

هذه هى العوامل التى ساعدت الأوربيين فى فتحهم وانتصرت بهم الجاهلية على الاسلام ، فكان اكبر انتصار نالته الجاهلية على الاسلام منذ زمن طويل ، ولو تكلمت لقالت : اليوم انتصفت من عدوى ، واخذت ثأر الأمم التى فتحها والدول التى محاها ، والحضارات التى طمسها ومن اليوم ازدهر فى بلاده واخصب فى نجاده ووهاده ، واجرى مجراى لا يسد تيارى شيء .

لو قالت لصدقت ، لأن المسلمين ــ على علاتهم ــ كانوا امناء لرسالة الأنبياء ، حملة لمصابيح شرائعهم ، وحرزا للدين فى الدنيا ودرءا للأخلاق والفضيلة على كل حال ، وكانوا اعظم سد فى وجه الجاهلية ، ويتحولون اكبر خطر عليها فى كل وقت .

كانت رزيئة المسلمين فى هذه الهزيمة عظيمة وخطبهم فادحا جدا ، فقد خسروا بلادهم التى كانت تفيض لبنا وعسلا ، وخسروا جميع دولهم تقريبا ، ومنوا بنوعين من العبودية السياسية والعقلية وحيث افلتوا من العبودية المادية لم يفلتوا من العبودية العلمية والخلقية .

ورزئوا فى اخلاقهم التى اورثتهم اياها تعاليم الأنبياء ، والمحاسن التى حافظوا عليها طوال هذه القرون : من صدق وامانة ، وشجاعة ووفاء ، وعفة وطهارة ، وكرم وتواضع ، وتقوى الله فى السر والعلانية ، ومراقبة حدوده الى غير ذلك ، مما يمتاز به اتباع الشرائع السماوية عن اهل الجاهلية ، وتسلطت عليهم بتاثير الأمم الغربية العيوب الخلقية ، والمخازى البشرية التى ورثتها اوربا من روما ويونان الوثنيتين ، ومن قرونها المظلمة ، ومن جاهليتها

كالنفاق والرياء ، والغدر بالعهود ، اذا دعت الى ذلك مصلحة ، والجشع المادى والايمان بالقوة وحدها ، والاحترام للمال والثروة وحدها ، وتقديم المصالح والمنافع على الأخلاق والفضائل .

وما كانت رزيئة الانسانية فى هذا الانتقال بهينة ، فتزلزلت مبانى الأخلاق والفضيلة فى كل صقع وقطر ، وحدثت ثورة على كل نظام قديم ، وان كان عادلا وحسنا ، وعمت الفوضى فى البيوتات والأسر ، وتغير الولد للوالد وعقه ، وتركت المرأة بعلها وثارت عليه ، وانحلت عقد الأرحام ، ولم يعد الصغير يوقر الكبير ولم يعد الكبير يرحم الصغير ، وتعوضت القلوب من الألفة والمحبة الجفاء والبغضاء ، وكثر التنافس فى الحياة الدنيا وفى الرقى المادى ، وفى أسباب الجاه والثروة ، وتولدت من ذلك ثروة وآفات كدرت صفو الحياة وأماتت القلب والروح ، الى غير ذلك من الظواهر التى تشكو منها كل ديانة وكل حضارة شرقية بثها وحزنها ، ومما يشترك فيه المسلمون وغيرهم من الشرقيين .

ثم ان هذه الأمم قد أصبحت تتحكم فى أموال الناس ونفوسهم وأرزاقهم ، وأصبحت تملك السلم والحرب ، وأصبح العالم فى حضانتها كولد يتيم أو شاب سفيه لا يملك من أمره شيئا ، فتارة تسوقه الى ساحة القتال ، وطورا تملى عليه الصلح ، وليس له فى صلح أو حرب يد مرفوعة أو كلمة مسموعة .

ماذا عسى أن يكون أثر هذه الهزيمة والرزية العامة فى نفوس المسلمين وفى نفوس بنى آدم عامة ؟

أما الناس عامة فلكل انسان أن يجيب عنه ، وسيجيبون عنه ، أما المسلمون وهم أولى بأن يوجه هذا السؤال اليهم لأن منهم انتقل هذا الملك الواسع والأمر والنهى الى الأوربيين ، ولأن دينهم يقتضى أن يكون ظاهرا على كل دين ، وأن يكونوا هم الأسوة

وحدهم للعالم ، فسيقول كل مسلم لم يمت قلبه : ان من الطبيعى أن تنطوى صـــدور المسلمين على احن واحقاد للجاهلية ، وأن ينظروا الى كل من يمثلها فى كل مكان كعدو غاصب ، وغريم منافس وأن طبيعة رسالتهم ودعوتهم فى العالم تقتضى بداهة أن تعزل الأمم الجاهلية من قيادة العالم ، والتأثير فى عقول الناس وتوجيــه أفكارهم ، وأن تمنع من تمثيل الجاهلية فى العالم ، وأن ينزع منها سلطانها حتى لا تكون فى دعوتها فتنة لمفتون ، وحتى لا تنافس الدعوة الى الله دعوة ، ولا ينازع فى الدنيا عاملان يتجاذبان النفوس والعقول الى جهتين مختلفتين ، « **حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** » .

ويعلم كل ذى بصيرة بل كل ذى بصر أن مجرد سيادة هــذه الأمم ، واستعلائها السياسى والمـادى دعاية عظيمة لدينها ، وحضارتها ومبادئها ، ومناهج فكرها وأخلاقها ، لا يقاومها منطق ولا استدلال ، ولا حجة ولا برهان ، ولا فلسفة ولا أخـلاق ، ولا تنجح ضـدها دعوة الأديان ، وانها قد أصبحت بزخارفها مغناطيسا للقلوب ، تنجذب اليها كما ينجذب الحديد .

هذه هى الحقيقة التى ذكرها موسى عليه الصلاة والسـلام فيما حكى القرآن عنه فى دعائه الذى دعا به فى مصر على عهد فرعون وهى حقيقة فى كل عصر ومصر :

« ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشـدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » (١) .

فماذا كان المنتظر من المسلمين ــ وهم حاملوا رسالة الاسلام ــ كان المنتظر منهم أن يروا فى أوربا وامريكا زعيما للجاهلية ، الذى

---

(١) الآية ٨٨ من سورة يونس .

تولى كبرها وحمل رايتها فى الآفاق . وكان الواجب أن تكون هذه المسألة هى أم المسائل وكبراها فى نظرهم ، وأن تشغل ذهنهم وتستغرق سعيهم ، وكان الواجب أن يعدوا أنفسهم فى كل ناحية من نواحى العالم ممثلين لدعوة الاسلام ضد هذه الدعوة الجاهلية ، وأن لا يتخذوا موقفا مهما كان اقتضاء المصالح الوطنية والسياسية والمالية ، لا يتفق وممثلى الاسلام وحاملى رسالته ، وأن لا يأتوا بشىء تتغذى به الحركة الجاهلية فى العالم ، وأن لا يظهر منهم شىء ينم عن ركونهم الى هذا النظام الجاهلى الذى بسطته هذه الأمم فى العالم ، وتريد أن تبسطه ويظهر به تعاونهم على الاثم والعدوان ، الذى لا عدوان أكبر منه .

ولكن مما يبعث الأسف العميق والعجب الشديد فى النفوس « عجبا يميت القلب ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان » كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى خطبة له ، ان المسلمين عامتهم لم يدركوا هذه الحقيقة مع وضوحها وانجلائها ، وذهلوا عن موقفهم الصحيح فى العالم ، ونسوا وجهلوا أنهم والأمم الأوربية الجاهلية دعاة لنظامين للحياة متضادين ، ولحضارتين متناقضتين وأنهم واياها ككفتى ميزان ، كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى .

وأصبح المسلمون أخيرا لجهلهم للدين وما يقتضى من حب وبغض ، وبتأثير الدعاية ، يرون الى الجاهلية الأوربية كالحليف الوحيد للاسلام ، وأنهم يقرعون بين أممها ودولها أيها أقرب اليهم ، وأنفع لمصالحهم ، وأغراضهم السياسية والمالية ، ويجهلون أنها مهما اختلفت فى نظمها السياسية ، وفى ادارتها الداخلية ، أو سياستها الخارجية ، ومهما تعادت وتباغضت فيما بينها ، فانها أخوات شقيقات من أب واحد وأم واحدة ، وأنها لا تختلف فى المبادىء الأولية وفى فلسفتها التى يسميها الاسلام « الجاهلية » وغاب عن عقلاء المسلمين والمتعلمين منهم بل وقادتهم وزعمائهم ،

ـ فضلا عن العامة ـ أنه ما دامت هـــذه الأمم تتمتع بالغلبة السياسية ، وما دامت لها سيطرة على العالم فهى المثل الكامل والقدوة المثلى فى الأخلاق والسيرة ، والعلم والمدنية ، والفضائل والرذائل ، وما دامت كلمتها عليا فلا تزدهر للدين دعوة ، ولا تعلو له كلمة ، ولا تسود فى العالم الأخلاق الفاضلة ولا تكون لها قيمة ، ففى مصلحة الاسلام وفى مصلحة الانسانية أن تعزل بأسرها عن قيادة العالم ، ولما كان المسلمون هم المسؤولين وحدهم عن صلاح العالم وفساده ، ووظيفتهم الحسبة على الناس ، وهم القوامون بالقسط ، شهداء لله ، وهم المراقبون لسير العالم ، فلهم أن يجتهدوا فى ذلك إكثر من كل شعب وامة ، بل يجب عليهم أن يكونوا طليعة ، وأن يكونوا اماما فى الحركة ضد الجاهلية وأممها ، بل يجب أن تبدأ منهم الدعوة واليهم تعود .

ولكن أجل نظرك فى العالم الاسلامى كله وانظر فى شـــعوبه وأممه ودوله ـ ان كانت فيه دول تملك أمرها ـ وفى جميع طبقات المسلمين ، هل ترى شيئا تستدل به على أن هـــذه الأمة المنبثة فى أرجاء الأرض صاحبة رسالة فى العالم وصاحبة دين وعقيدة ، وانها تنكر مما وقع وواقع شيئا ؟ وتحمل فى صدرها حفيظة ضد الجاهلية واهلهـا ، وتريـد أن ترفع للاســلام راية وتجتهد لاعلاء كلمة الله ؟

كلا ! بل ترى أمة هادئة مطمئنة راضية بكل ما يقع فى العالم اليوم ، سليمة الصدر ، قريرة العين ، ناعمة البال ، تتعاون مع الجاهلية وامممها وتتحالف ، وتقدم لها كل معونة تقدر عليها .

لمثل هذا يذوب القلب من كمد

ان كان فى القلب اسلام وايمان !

أجل ان كان فى القلب اسلام وايمان لما ارتضى مسلم بهـذا

الخزى ، ولكن كل ذلك يرجع الى كون الرجل مسلما ، يحب لله ويبغض لله ، ويوالى فى الله ويعادى فى الله ولذلك ذكره القرآن شرطا فى قوله :

« يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما اخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون » (١) ثم ضرب لذلك مثلا بابراهيم وأصحابه :

« قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم : انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده » (٢) .

يلاحظ القارىء العربى النكتة فى قول ابراهيم وأصحابه « كفرنا بكم » وبلاغة الكلمة وسعتها ، فلم يقولوا كفرنا بدينكم كأنهم قد أصبحوا صورة وتمثالا للكفر والجاهلية ، جامعين لمعانيها وأشكالها ومظاهرها ، ولأن حياتهم كلها وما يتصل بها من علوم وفلسفة ، وحضارة وثقافة قد سرى فيها روح الكفر والجهل ، وذلك ينطبق على كل أمة جاهلية حرمت هدى الأنبياء وعلومهم ، وبنت حياتها وعلومها ومدنيتها على دلالة الحواس أو على القياس أو التجارب ، فعم الأنكار لجميع هذا وكأنهم أعلنوا بهذا اللفظ

---

(١) الآيتان ١ و ٢ من سورة الممتحنة .

(٢) الاية ٣ من سورة الممتحنة .

انهم ثائرون على هذا النظام الجاهلى برمته وحذافيره ، جاحدون به كافرون بأصحابه ، لا يؤمنون لهم بفضل ولا يخضعون لهم بشيء !

ثم لينظر القارىء ويعتبر كيف أن المسلمين وهم أتباع دين واصحاب يقين ، قد آمنوا بزعماء الجاهلية وأئمة الكفر ولو لم يؤمنوا بدينهم ، ولكنهم آمنوا بهم بأوسع معانى الكلمة وقد اشترط الله للايمان به الكفر بالطاغوت وقدم عليه وقال : **« فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى »** .

أما اذا أصبح المسلمون لا يعنيهم أمر الدين والأخلاق ، ولا يهمهم مصير الانسانية ومستقبل العالم ، ولا تهمهم الا المصالح السياسية والفوائد المادية الحاضرة التى تعود على بلادهم أو شعبهم ، وبالأصح على اشخاصهم ، فحبلهم على غاربهم ، وأمرهم بيدهم ، ولكن ليعلموا أخيرا أن سفينة الجاهلية التى اختاروها لسفرهم قد أحيط بها ، وأن ألواحها قد تآكلت ونخرت منذ زمن ، وأن ربابينها قد اختلفوا فيما بينهم فى تسييرها وقيادتها ، ويعلموا أن هذه السفينة اذا غرقت فانها تغرق ركابها ، وكل من وصلوا أسبابهم بأسبابها ، ولا عاصم من أمر الله الا من رحم . وقد قال :

« ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » (١) .

* * *

(١) الآية ١١٢ من سورة هود .

مصرع الجاهلية

من الأساطير التى سمعنا فى الصغر ، وبقيت فى غضون الذاكرة وبعض ثناياها ، أن رجلا اعتدى عليه عفريت من الجن بمثل ما كان يعتدى به الجن على البشر ، فبرز الرجل بكل ما أوتى من حول وطول ، وبكل ما قدر عليه من سلاح وشكة ليقتله .

هجم الرجل على العفريت بكل سلاح ماض ، وسيف باتر ، وسهم مصيب ، ونثر كنانته ، ولم يدع فى القوس منزعا ، ولكنه لم ينكأ عدوه ولم يصب منه مقتلا ، وما زال الرجل يعيد الكرة بعد الكرة ، ويجرب سلاحا بعد سلاح ، والعفريت ساخر منه غير محتفل به كأنه من نفسه على أمان ، ومن سهام الرجل وهجماته فى حصن حصين .

حار الرجل فى أمره وأعياه أمر العفريت ، وكاد يقطع من قتله الرجاء اذ أخبره احد العقلاء أن روح هذا العفريت فى حوصلة ببغاء ، وهذه البغاء فى قفص من حديد ، وهذا القفص معلق فى غصن شجرة ، وهذه الشجرة فى غابة كثيفة يسكنها سباع ضارية ، وحيات فتاكة ، وعقارب سامة ، ودونها خرط القتاد وحولها شم الجبال .

وما زال الرجل يطلع جبلا بعد جبل ، ويقطع واديا بعد واد ، ويقتل وحشيا بعد وحشى ، حتى خلص الى هذا القفص ، وخنق هذه الببغاء ولم يكد يقتلها حتى حدثت رجة عظيمة دارت بها الأرض الفضاء ، واظلمت بها آفاق السماء ، وصاح العفريت صيحته الأخيرة ، وكان جثة هامدة لا حراك بها ، وهكذا قتل الرجل عدوه بعد ما لقى منه عرق القربة .

لعلك سمعت هذه الأسطورة من عجوز فى بيت تحكيها لأحفادها أو أسباطها فمررت بها مستهزئا وقلت :

حديث خرافة يا أم عمرو .

نعم انها لحديث خرافة ، وأسطورة من أساطير الأولين ، ولكنها تفيدنا بأن كل حى له مقتل ووريد ، ولا يؤثر فيه عدو ، حتى يصيبه فى مقتله ويقطع منه الوريد ، وأن دون ذلك المقتل وحول هذا الوريد حواجز وحصونا .

قد تسلط على الأمة الاسلامية عفريت من الحياة الجاهلية ، واعتدى عليها بصنوف من الخبال ، وضروب من الأذى والوبال ، ظهرت فى كثير من أخلاقها وأفعالها ، كاستخفاف بأحكام الشرع ، وتجرؤ على المعاصى ، ووقوع فى محارم الله ، واستعباد لعباد الله ، وامعان فى الشهوات ، واسراف فى سبيل المتع واللذات ، وتهافت على الخسائس والرذائل ، وفرار عن مكارم الأخلاق والفضائل ، **« وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا »** (١) .

والناس طبقات : عامة ، وأوساط ، وعظماء .

فأما العامة فمســــاكين تدور حولهم رحى الحياة بسرعة ، لا يرفعون فيها الى الدين والسعادة الأخروية والاستعداد للموت راسا ، وانما همهم أن يؤدوا ضرائبهم ، ويجمعوا لأيام فراغهم ويكسبوا قوت يومهم ، ويكسوا عيالهم ، فهم يكدحون فى الحياة كدح الحمير والثيران ، لا يتعبون الا للراحة الموهومة ، ولا يستريحون الا للتعب الواقع ، فهم من البيت الى الدكان ، ومن الفراش الى

---

(١) الآية ١٤٦ من سورة الأعراف .

المصنع او السوق او الادارة ، ومن نصب الى نصب ، ومن هم الى هم ، لا تنتهى همومهم ولا تنقضى متاعبهم ، حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة ، قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها .

واما الأوساط فهم أسوأ منهم حالا وأكدر منهم بالا ، عذبهم الله بالحرص والجشع ، ينظرون دائما الى من فوقهم ولا ينظرون أبدا الى من دونهم ، فهم فى هم متواصل ، وأحزان متسلسلة ، وشقاء مستمر ، وتذمر جار ، وشكوى قائمة ، وأنين باق ، يجرون فى رهان لا تنتهى ، ويسابقون جيادا لا تكل ولا تسبق ، ولا يزال قصب السبق بعيدا ، كلما انتهوا الى غاية رأوا غاية أخرى ، فجروا وراءها وهى تبتعد عنهم ، كما يبتعد الأفق من الطفل الذى يحاول مسكه ، وشعاع الشمس الذى يجتهد لقبضه ، وهكذا يتفلت منهم « المثل الأعلى » فى الغناء والثروة ، والرخاء والجاه ، فيموت الواحد منهم كئيبا منكسرا ، لم يستعد ليوم الجد ولم يأخذ لنفسه عدتها ويأتيه الموت فيقول : **«رب لولا أخرتنى الى اجل قريب ، فاصدق وأكن من الصالحين»** (١) .

واما العظماء — من الملوك وأبناء الملوك والأمراء — فانهم يريدون أن يلتهموا الدنيا طولا وعرضا ، وينتهبوا المسرات جريا وركضا ، لا يشفى عليلهم ولا يروى غليلهم ، وهم من دقائق الراحة الى دقائق ، ومن بدائع الى بدائع ، ومن ابتكار الى ابتكار ، ومن لذيذ فى الطعام والشراب الى الذ ، ومن حديث من مستحدثات المراكب والقصور والأزياء الى أحدث ، لا تكفيهم فى ذلك موارد قطر بأسره ومنابع ثروة أمة بطولها ، حتى يلجأوا الى استقراض وتجارات وضرائب جديدة وأتاوات ، ولا يبالون فى سبيل ذلك أن يرهنوا بأيدى عدوهم رداء الزهراء ، أو كساء ابى ذر ، أو شملة

---

(١) الآية ١٠ من سورة المنافقون .

أويس ، او مصحف عثمان ، أو صمصامة عمرو بن معدى كرب ، او رمح الزبير ، او بردة كعب بن زهير ، ويهيئوا صــــبوحا او غبوقا .

وقدهجم على عفريت الجاهلية جيش من المصلحين فصاحوا به من كل جانب ، ورموه عن قوس واحدة ، ولكن لم ينكأوا عدوهم ولم يصيبوا منه مقتلا .

القى الوعاظ والآمرون بالمعروف والناهون عن المنــكر دروسا فى الأخلاق ، وأحاديث فى الترغيب والترهيب ، طمعوا الناس فى الجنة ، وحذروهم من النار ، بشروهم بالوعد ، وخوفوهم من الوعيد ، فسمع الناس كل ذلك فى هدوء ولم يحرك منهم ساكنا ولم يغير منهم خلقا .

الف المؤلفون كتبا جاءوا فيها بكل رقيق مرقق ، أوردوا فيها حكايات زهد العمرين ، وتقشف على بن أبى طالب ، ومواعظ الحسن البصرى ، وكلمات ذى النون المصرى ، ورقائق الفضيل ابن عياض ، وزهديات أبى العتاهيـــة ، وفصاحة الواعظ ابن الجوزى ، وتحليل الامام الغزالى .

قوارع تبرى العظم من كلم مض .

فقام الأغنياء والأمراء وأبناء الملوك فاقتنوا هـــذه الكتب ، وزينوا بها مكاتبهم ، وتحدثوا عنها الى ندمائهم وزائريهم فى لباقة ورشاقة ، ولكن لم تنفذ سهامها من العيون الى القلوب ، ولم تجاوز أحاديثها تراقيهم .

قام الخطباء البارعون فألقوا خطبا أسمعت الصم واستنزلت العصم ، فسمعها هؤلاء وأثنوا على براعتهم وفصاحتهم ، ومضوا

لسبيلهم لم يبكوا على زلة ولم يقلعوا عن سيئة ، ولم يحدثوا لله عهدا .

لقد كان ـ والله ـ أقل من هـــذا يهز القلوب فى الجوانح ، ويستفرغ الدموع من العيون ، ويرجف القصور ، ويقلب عــروش الملوك ، ويجعل من أبناء السلاطين والأمراء مثل ابن أدهم وشقيق البلخى ، يسمع أحدهم وهو خارج من قصر أو رائح الى لهـــو قارئا يقرأ : ((**الم يأن للذين آمنوا أن تخشـــع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق**)) (١) (الآية) فيقول : والله لقد آن ، والله لقد آن ، ويرمى آلات اللهو ، ويخرج من أبهة الملوك وحشمة السلاطين الى تبذل الفقراء وتقشف الزهاد .

فهل فقـــدت الألفاظ على تعاقب الأيام معانيها ، أم اعتلت الأذواق ، أم استعجمت اللغات ، أم ماذا ؟

ان شيئا من ذلك لم يقع ، ولكن نفسية الانسان تغيرت تغيرا عظيما . كان أمر الدين فى الزمان المـــاضى ـ برغم جميع أدوائه وعيوبه الخلقية والاجتماعية ـ جدا غير هزل ، وكان أمر الدين يعنى كل واحد ويهمه كما تهم الحقائق والأمور الواقعة ، وكان فى بعض الأحيان حجب من الترف والطبع والرسم وسوء المعرفة وقلة العلم ، فاذا ارتفعت هذه الحجب وتطرقت دعوة الدين الى القلوب لم يحل دون التوبة واصلاح الحال شىء .

أما الآن فقد أصبح الدين موضوعا تاريخيا أو حديثا علميـــا بحتا ، وأصبح الحديث عنه فى المجتمع العصرى كالحـــديث عن كوكب المريخ وعجائبه وعن القطب الشمالى وأخباره ، لا يعــود على المتحدث والمستمعين بضرر أو نفع ، ولا يطالبهم بعمل أو ترك ولا يمسهم فى صميم مسائلهم ، ولا يعنى الانســـان ولا يهمه فى حياته الا بمقدار ما يتظرف بمعرفته ودراسته فى بعض المجالس ،

---

(١) الآية ١٦ من سورة الحديد .

أو ما يحادث به أهله عند الحاجة ، أو ما يجلب به نفعا **ويدفع** به ضرا فى مجتمع لا يزال يدين بالدين أو يحترمه ، فليس له الا قيمته المادية المؤقتة .

واصبحت الحياة وتكاليفها جد الجد ولب اللباب ، واصبحت مسائلهم هم الشيخ ودرس الصبى وشغل الشاب ، واصبح الجهاد فى سبيلها والنجاح فى ميدانها مقياس الفطنة والذكاء ومعيار الظرافة ، واللباقة ، ورمز المروءة والشهامة .

وهنا يقف الداعى الدينى حائرا فى أمره كيف يواجه هذه العقلية الهامدة والنفسية الباردة فى سبيل الدين ، انه واجه العقول الثائرة على الدين فأخضعها ببراهينه ، ووجد شكوكا وريبا تمكنت من النفوس ، فسلها بحكمته وملأ القلب ايمانا وطمأنينة ، ولكن ههنا يجد نفسه فى موقف غريب لم يعهده ، فلا انكار ولا جحود ، ولا اباء ولا استكبار ، ولا عناد ولا اعتراض ، ولا دليل ولا فلسفة ، ولكن حياد تام فى مسألة الدين ، واستغناء عن كل ما يتصل بالآخرة ، واخلاد الى الأرض ورضى بالحياة الدنيا واطمئنان بها .

هنا يقف الداعى حائرا فى أمره كيف يواجه هذه النفسية ومن أى باب يدخلها ، انه يجد حولها غشاء من حب الدنيا والمال فلا سبيل اليها ولا نفوذ فيها الا بطريق الدنيا والمال ، وأن سبيل الدين غير سبيل المال ، وان طريق الغيب غير طريق الحس والشهود ، فماذا يصنع ومن اين يبدأ ؟

ان القى على القوم نصائحه ووجه اليهم خطابه وحكمته ، ونثر كنانته فى الدين واجلب عليهم بخيل العلم والبراهين ، ذهب كل ذلك فيهم سدى ، وأجابه لسان الحال قائلا : **« قلوبنا فى أكنة**

مما تدعونا اليــه ، وفى آذاننــا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون » (١) .

قرأنا فى حكايات « ألف ليلة وليلة » أن سندباد البحرى وجد بيضة عنقاء فظنها لكبرها وضخامتها وملاستها قصرا من الرخام ، فدار حولها لعله يجد بابا يدخل منه فى داخل القصر ، ودار مرارا عديدة ولكنه لم يجد بابا ، وعرف بعد ذلك أنها بيضـــة عنقاء ، لا قصرا من القصور .

كذلك يدور الداعى حول هـــذه النفسية المســتديرة التى استهوتها الدنيا وغشى عليها حب المال أو الجاه ، فلا يجد فيهـا منفذا ينفذ منه الى النفسية وينزل فى أعماقها ، فيقطع منها الرجاء وينقلب منها خاسئا وهو حسير .

اذن روح هذا العفريت الجاهلى ، هو الاخلاد الى الأرض ، الرضى بالحياة الدنيا والاطمئنان بها ، وعبادة المال والمادة .

هذا مقتل هذا العفريت وهذا أبهره ووريده .

وانما ضاعت فصاحة الفصحاء ، وخطابة الخطباء ، وبلاغة المؤلفين وأصــحاب اليراع واخلاص المخلصين وحكمة الحكماء ، لأنهم لم يضربوا على الوتر الحساس ولم يصيبوا العدو فى مقتله .

بلغت المادية أوجها فى عهد الاستيلاء الأوربى ، واصــبحت فلسفة وفنا وحياة ودنيا ، وليس من مظهر من مظاهر حياتهـا ولا مركز من مراكز نشاطها اليوم الا والفضـــل فيه يرجع الى أوربا وسيطرتها السياسية والاقتصادية مباشرة أو بواسطة ، والى غزوها التجارى العالمى .

---

(٢) الآية ٥ سورة فصلت .

تنافس تجار الغرب بدافع من حب الغنى والثروة ، واحتكار الأموال فى الصناعة والانتاج ، وغزوا ببضائعهم الشرق وامتصوا بها دماءه ، ولم يقض ذلك لبانتهم لأن نطاق الضرورة ضـــيق ، والجشع ما له نطاق ، فنافسوا فى انتاج دقائق المدنية وفضول الصنائع وكماليات الحياة وصبوها على الشرق صبا ، واستهلكوا فى ترويجها كل ذكاء وادب وفلسفة وسياسة ، واستغلوا سذاجة الشرق وحبه للدعاية والفخر ، فما لبثت هذه الدقائق والكماليات أن دخلت فى أصول المعاش ولوازم الحياة فى الشرق ، وأصـــبح الذى لا يتحلى بها لا يعد من الأحياء ولا يعامل فى المجتمع معاملة سواء ، وأخذت بتلابيب الشرقى وأذهلته عن الدين والآخرة وعن كل شىء غيرها فى الدنيا ، وأهاجت عليـــه هموما لا أرجاء لها ، وبعثت فيه شرها للمال لا نهاية له ، وأصبحت عليه الحياة جحيما لا يسمع فيها الا : هل من مزيد .

وما يكاد الشرقى يصل الى هذه المنتجات وشروط الحيـــاة الا على جسر من المتاعب والمصائب ، وعلى طريق من شوك وقتاد ، ولا يكاد يتحلى بها الا وتصبح هذه المستحدثات آثارا عتيقة وأطمارا بالية ، ويهجم عليه الغرب بطراز حديث من المنتجات والمصنوعات فينكص على عقبيه ويتزود لاقتنائها بالمال اللازم ــ بوجه مشروع أو غير مشروع ــ ولا يكاد يطلع بها على مجتمعه الا ويرحـــل المنسوخ ويحل الناسخ ، وهكذا لا يزال من حياته فى جهاد مضن شاق ومع المصانع الغربية والتصــــدير الغربى فى رهان دائم ، يسبقه فليحقه ويلحقه فيسبقه ، ولا يزال من عيشه فى مضض وغصص يتجرعه ولا يكاد يســـيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت .

افسدت المدنية الغربية والتجارة الغربية طبائع أهل الشرق وأذواقهم ، على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ، الانت منهم القناة

واطفأت فيهم جمرة الحياة ، اذهبت منهم التمعدد العربى والتجلد العجمى ، واحدثت فيهم التخنث والتأنث الأوربى ، واصبحت الفروسية العربية ، والنخوة التركيـــة ، والفتوة الفارســـية ، والبطولة الهندية ، والغيرة الأفغانية حديثا من أحاديث التاريخ ؛ واصبحت الحياة فى حواضر الشرق ، بل وفى بواديه نسخة قاصرة ممسوخة من الحياة الغربية المصطنعة ، لها ضراؤها ، وليست لها سراؤها ، ولها الغرم دون الغنم .

أصبح الناس فى كل البلاد فى تيار الحضارة الغربية يسيل بهم سيلها الجارف ولا يملكون من أمرهم شيئا ، واصبح الوالد لا يملك ولده ، والعاهل لا يملك أهل بيته ، بل واصبح الانسان لا يملك نفســـه أمام الهوى ، وانتقاد المجتمع اللاذع ، ووخز الضـــمير ، وغاص الناس فى بحر المدنيـــة الى آذانهم ، فترى الصعاليك من العجم يغدون فى حلة ، ويروحون فى أخرى ، وترى الحفاة العراة العالة من العرب رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ، ويتفاخرون باقتناء السيارات الأميركية من أحدث الطراز ، وأفخر الأنواع ، حتى يخاف أن تنقرض الخيل العتاق من ارض الجزيرة التى ملأت التاريخ والأدب بحديثها واخبارها .

شحنت البضائع الغربية أسواق الشرق الاسلامى ، وانبتت شرايين التجارة الغربية وعروقها — وهى طلائع السيادة الغربية ، وسيطرتها السياسية وسهامها التى لا تطيش — فى جوف أقــدس البلاد الاسلامية وأحشائها ، وجاست خلال الديار ، واصبح اهلها عالة على البضائع الأجنبية ، حتى عادوا لا يتصورون الحيـــاة والمعيشة بغيرها ، ولا يقضون حقوق الأعياد والأفراح الا بها ، وامتصت هذه البضائع أموالهم بل دماءهم كالأسفنج ، يتشربها فى بلادهم ويصبها فى بلاده ، وهكذا أصبح ما يكسبه المسلم بعرق

جبينه وكد يمينه ، وبرزيئة فى اخلاقه ، وعلى حساب دينه ينتقل الى البلاد الأجنبية .

التجأت الحكومات الاسلامية لتحقيق مشـــاريعها العمرانية كما تقول ، أو لقضاء مآرب رجالها كما يقول الناس ، الى الاستدانة من الدول الأجنبية ، فخفت لذلك ورحبت به ورصدت لها بعض المال بشروط تجارية وامتيازات سياســية ، واقبلت البـــلاد الاسلامية تحلب ضروعها وتستخرج الذهب الوهاج ، وماء حياة الصـــناعة والتجارة (البترول) من بطونها ، ويتهافت الفقراء الذين اجهدتهم الضرائب وتكاليف الحياة على أجورها وخدمتها تهافت الفراش على الضوء ، والجياع على المائدة ، وهكذا تصبح بلاد الاسلام بين اخطار من الالحاد والاحتلال الأجنبى .

ثم هنالك « الطابور الخامس » وهو ذلك الأدب المســـلول المسموم الذى ولدته الثورة الفرنسية ، وأرضعته الفوضى الخلقية والاباحة فى أوربا ، وغذته الشيوعية ، ذلك الأدب الخليع المستهتر الذى ينبت فى القلوب النفاق ويسقى غرس الشهوات ، ويقوض دعائم العمران ، ويفسد نظام الأسرة ، ويسخر من كل فضيلة ، ويستهين بكل أدب ونظام ، ويزين للقارىء مذهب اللذة والانتفاع ، وانتهاز الفرص ، يلخص التاريخ ويوجز الفلسفة والعلم فى حب المال والميل الجنسى ، ويصور العالم كله ، كأنه ليس الا ظهور هاتين العاطفتين ، وليس وراء ذلك حقيقة علميــة ، ومبدأ سام أو غرض شريف .

وقد انتشر هـــذا الطابور فى أنحاء العــالم عن طريق الأدب والروايات والمجلات « والراديو » و « السينما » وتأثر به الحاضر والباد ، وتحدثت به العواتق فى خدورها ، وصار ينخر الحضارة الدينية والأدب الاسلامى حتى تسرب العطب اليوم الى لبابه .

وهكذا اصبح العالم كله شعوبا وحكومات وأفراداً تحت سلطان المادية والقوة والجاه والشهوات ، قد شغلت منه كل موضع ومنفذ ، وملكت عليه جميع مشاعره ، واستهلكت فى سبيلها جميع مواهبه وقواه وتفكيره وذكاءه ، وخلقت فى الانسان نفسية لا تؤمن الا بالمحسوس ، ولا تفكر الا فى اللذة والهناءة والسعادة الدنيوية ، ولا تهتم الا بهذه الحياة ومطالبها الكاذبة التى ما أنزل الله بها من سلطان ، والتى انما فرضتها على الانسان الحياة المزورة ، والمجتمع الفاسد ، والتجارة الجشعة .

كيف يحل فى هذه النفس المادية الدين الذى أساسه الايمان بالغيب ، وايثار الآخرة على العاجلة ، الذى يقول : « وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون (١) » والذى يقول : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فان الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هى المأوى (٢) » .

والذى يقول نبيه صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة » ويقول : « حفت الجنة بالمكاره » .

اذن فالمادية فى هذا العصر هى علة العلل وعدو الدين الألد ، ومنافسه الأكبر ، وانالغرب هو زعيمها الذى تولى كبرها ، ووكرها الذى تطير منه وتأوى اليه ، وفيه تبيض وتفرخ .

فأين ذلك البطل الذى يمثل قصة الآدمى مع الجنى على مسرح التاريخ والواقع ؟

وأين تلك الأمة التى تعارض هذا التيار الجارف وتأبى أن

---

(١) الآية ٦٤ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ٤١ من سورة النازعات .

تفقد شخصيتها ، ومقومات حياتها ، وتغلب على أمرها ، فتحول هذا التيار وتقلبه رأسا على عقب ، أو تقف فيه كجبل راس ، أو صخرة صماء ، فيحول التيار مجراه ، ويتخذ طريقا آخر .

ان البطل الذى يمثل قصة الآدمى مع الجنى ويفتك به ، هو رجل الساعة ، وبطل الأبطار وفتى الفتيان .

وان الأمة التى تعارض هذا التيار وتغير مجراه هى امام الأمم المبعوثة الى العالم ، فأين ذلك البطل ؟ وأين تلك الأمة ؟؟ هل تجيب الأمة الاسلامية وهل يجيب العالم العربى على هذا السؤال ؟!.



ازمة ايمان واخلاق

عن أى شىء اتحدث ؟ ان الأحاديث كثيرة ، والشجون كثيرة ، واذا كثرت الأحاديث والمعانى تحير الانسان .

ولكن سأحدثكم عن شىء اومن به واعتقده ، ولن احاول ان اشبع رغبتكم او ان ارضى اسماعكم ، بل حسبى ان ارضى نفسى وضميرى وايمانى ، فاذا أرضيت ضميرى اكون قد أرضيتكم .

لن أحدثكم حديثا علميا ولا تاريخيا ، فقد اتخمنا بهذه الأحاديث وفيكم من يملؤكم علوما ومعانى وخطابات .

تسمعون الناس يتحدثون عن الأزمات والمشكلات ، ــ وهذا العصر هو عصر الأزمات والمشكلات ــ يتحدثون عن ازمات اقتصادية ، وازمات سياسية ، ويتحدثون عن ازمات الحكم وازمات الاجتماع ، ولكنى أعتقد ان هناك أزمة واحدة لا ثانية لها هى أزمة الايمان ، وازمة الأخلاق ، فسيحوا فى الأرض وشاهدوا الأمم والشعوب ، فانكم سترون أن هذه الانسانية ــ بمختلف الشعوب والأقطار فى انحاء العالم كله ــ تعانى أزمة واحدة هى : « أزمة الايمان والأخلاق » هى كارثة الكوارث ، وهى مصيبة المصائب ، وكل مشكلة تحدث الناس عنها ، واشتكوا منها ترجع الى هذه الأزمة ، والشىء الوحيد الذى فقد ، وبفقده وقعنا فى هذه المصيبة العالمية هو الايمان ، والشىء الوحيد الذى اعتل ، وباعتلاله أصبحنا نواجه هذه المشكلات كلها فى نطاق الأفراد والمجتمعات والحكومات

---

(١) محاضرة القيت فى مركز جمعية انقاذ فلسطين ببغداد فى يوليه سنة ١٩٥٦ .

والأوضاع العالمية هو الأخلاق ، ان الناس أشباه ولم يزالوا ، وإننا بشر والذين يحكموننا بشر ، ولكن الذى يسيطر على العالم ، هو هذه الأزمة الايمانية الأخلاقية ، ان كثيرا من الناس يعتقدون ان الشأن فى الحكومات والأحزاب ، فاذا ذهبت وزارة وجاءت أخرى ، واذا ذهب حزب وجاء آخر ، فقد انحلت الأزمة وانقشعت المشكلة ، ان هـــذا حكم خاطىء ومستعجل ، ومبنى على قصر النظر ، ليست المسألة مسألة أحزاب او حكومات ، أو شيء من التعديلات ، انالمسألة مسألة العقليةوالاعتقاد ، والنفوس والقلوب فلا فائدة فى هـــذه التغيرات ، وان تبدل حزب بآخر أو حكومة بأخرى ، لا يقدم ولا يؤخر ، ان الأفراد كلهم يلتقون على الخضوع للمادة والاستئثار وخدمة النفس ، وهذه النفس قد تقصر فتصبح نفسا فردية ، وقد تتسع فتصبح نفسا حزبية أو جماعية ، ان هذه العقلية هى التى تسيطر على العالم كله ، وكل ما نعانى من فساد الأوضاع ، مرده الى فساد هذه النفوس ، وهيمنة هـذه العقلية الخاضعة للمادة ، الخادمة للمصلحة المستأثرة الأنانية .

هذا هو الداء أيها الاخوان ، فلا تخـــدعوا أنفسكم ، وكلما جردتم النظر ، ونزلتم الى أعماق الحقائق ، فانكم ستجدون أن أصل البلاء هو شيء واحد (هو عبادة النفس) فاذا لم تتغير هذه النفوس التى تعبد المادة ، فلن تتغير هذه الأوضاع أبدا .

ان هذا التنافس الذى تتحدث به الصحف ، والذى قد يؤدى الى حروب طاحنة ــ تستمر سنين طوالا تطحن الأمم ــ هـــو تنافس فى الاغراض فقط ، لا تنافس بين الخير والشر ، وان هذا الاصـــطراع القائم بين الأمم الأوربية ، ليس معناه أن أمة منها تريد أن تسيطر على العالم لتقضى على هذه الأوضاع الفاسدة ، ولتخدم الانسانيـــة ، وتنفذ قوانين الله ، وتحارب الفســـاد ، وتساوى بين الناس ، وتقيم القسط والعدل ، وتأمر بالمعروف

وتنهى عن المنكر ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة كما قال الله تعالى : **« الذين ان مكناهم فى الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر (١) »** .

لا يا أيها الاخوان ، انما هو تنافس على القيادة ، كل أمة تريد ان تمتلك الحكم لتنفذ شهواتها ، انما النزاع فيمن يكون صاحب الأمر والنهى ، وتكون له قوة ارضاء الشهوات ، وخدمة المصالح الذاتية الحزبية .

فبريطانيا وحليفاتها ــ مثلا ــ لم تكن تنازع المعسكر الشيوعى لتقيم القسط والحق ، وكذلك لم يكن المعسكر الشيوعى فى وقت من الأوقات لينازع الحلفاء الأوربيين فى سبيل اقامة العدل ، لأنه لم يكن حريصا على اقامة الدين والفضيلة ، انما يصارع ويحارب ليكون هو المعسكر الوحيـــد فى العالم الذى يهيمن على وسائل وامكانات البشرية ، وليحتكر التجــارة العالمية ، ليس لمصلحة البشرية ، بل ليكون الذين يؤمنون بمبادئه وينضمون اليه يسعدون على حساب الأمم والشعوب التى يسيطر عليها .

ان مرد هـــذه المصارعات كلها هو شهوة النفس وعبادتها ، وما لم تتغير هذه النفسية الشريرة الفاسدة المتعفنة فلا مطمع فى صلاح العالم أو سعادته ورفاهه .

المهم أو الأهم ــ أيها الاخوة ــ أن يتغير الانسان ، ان كل شىء فى هذا العالم خاضع للانسان ، والانسان خاضع لنفسه وضميره وعقيدته ، فاذا كانت هذه صالحة كان الانسان صالحا ، واذا صلح الانسان صلح العالم « الا ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهى القلب (٢) »

---

(١) الآية ٤١ من سورة الحج .

(٢) حديث صحيح .

لقد أصبح الناس مؤمنين ـ بحكم ما يكتبه ويقوله أناس لم يتعمقوا فى العلم ـ بأن صلاح العالم هو فى وجود حكومة على أساس كذا وكذا ، أو فى تولى الرجل الفلانى ، أو الحزب الفلانى الحكم ، وما دروا أن المجتمع فاسد لفساد الضمائر والقلوب ، وما لم تصلح فلا يؤمل الصلاح ، هـــذا أيها الاخوان قول مجرب خبير لا قول انسان منطو على نفسه ، قول رجل تهيأ له ـ بحمد الله ـ من الدراسة العميقة الشيء الكثير .

قد يدخل الرجل الى غرفة مظلمة ، فلا يستطيع أن يجـــد طلبه اذا لم يفتح الزر الكهربائى ، ولـكن الرجل الخبير بمجرد دخوله الغرفة يعرف موضـــع الزر فيفتحه ، فيسرى النور فى التيار ، ويضيء جنبات الغرفة ، ويقضى الرجل حاجته ، وهـــذا هو شأن الأنبياء عليهم السلام ومن سار على أثرهم ، هذا هو الزر ، هو « الايمان » ، اذا فتح انطلقت منه موجة النور لتضيء العالم كله .

انى أرى رجالا فى البلاد العربية والاسلامية وغيرها يبدون كبارا فى العقل والتفكير والتجربة ، ولكنى أستغرب أن « تفكيرهم قاصر غير ناضج » .

يتكلمون عن المشكلات حديث رجل لم يتعمق ولم يرسخ ، يتحدثون عن مشكلات السياسة والاجتماع ، ويعتقدون انه اذا جاء الحزب الفلانى ذهبت المشكلة ، فاذا جاء الحزب واجهنا نفس المشكلة ، بل ما هو أكبر منها وكثيرا ما نواجه مشكلات جـديدة أخرى ، ثم نجرب حزبا آخر ، فاذا هو شر من الأول ، وصـــدق الشاعر اذ قال :

الا انما الأيام أبنـــاء واحـــد

وهـــذى الليـــالى كلهـــا أخوات

فلا تطلبن من عنـــد يوم وليـــلة

خلاف الذى مرت به الســـنوات

الىمتى تجرى هذه التجارب على الانسان المســكين ؟ والى متى نفحص ونشرح ثم نرجع من غير طائل ؟ ان الأنبيـــاء يمنحونا العلم اليقينى ، ويعطونا العلاج الشافى .

ان المسألة مســـألة النفوس ، وما دمنا معرضـــين عن هـــذه الحقيقة ، فسوف تبقى نعانى مشكلة بعد مشكلة .

ان من المصائب هذه المدنية الاعراض عن الافراد ، فقد أثرت العلوم العمرانية فى النفوس ، حتى أصبحت تعتمد على المجموعات، والمؤسسات ، والهيئات الاجتماعية ، والحكومات ، دون الاهتمام بالأفـــراد ، مع ان الأفـــراد هم أســـاس المجتمعات والحـــكومات والاحزاب والمؤسسات ، نقول لهم : ايها السادة ، دونكم الأفراد فأصلحوهم وهيؤوهم لهذا الهيكل الاجتماعى ، فسيقولون : مالنا وللافراد ، نحن فى عصر اجتماعى طابعه الاجتماع ، فنقول لهم : آمنا بالاجتماع ، ولـــكن اذا لم يكن الأفراد أين يـــكون المجتمع ؟ ولكنهم يقولون : ان الأفراد يصلحون بصلاح المجتمع ؟ ان مثـــل هؤلاء الذين يهتمون بالمجموعات دون الأفراد مثـــل من يجمع أخشابا نخرة ، متآكلة مخرومة ، يريد أن يعمل منها سفينة تحمل جماعة كبيرة وبضائع ثمينة ، فاذا قال له رجل صاحب نظـــر : ان هذه الاخشاب لا تصلح لبناء ســـفينة تحمـــل جمـــاعة كبيرة وبضائع ثمينة ثقيلة ، قال : ان هذه الاخشاب لا قيمة لها ، انما المهم السفينة ، فاذا تكونت السفينة فقدت الألواح شخصيتها ، فلا يهمك ان كانت الاخشاب فاسدة منخورة .

ان الفاسد فاسد ولكن اذا اجتمع الفاسد مع الفاسد ينتج الصالح ! ان اللص لص ، ولكن اذا اجتمعت اللصوص اصبحت حارسة للمدينة !! .

هذه هى عقلية أوربا ـ ان اللصوص لصوص فى افرادهم ، ولكنهم أمناء فى مجموعهم ، ما هذا المنطق ؟

الذئب ذئب ، ولكن اذا اجتمعت الذئاب أصبحت راعية ! ان الجمرة تحرق البيت ، ولكنها اذا اجتمعت الجمرات أصبحت بردا وسلاما !!

هذا شيء مضحك ، ولكن اليس هذا هو الاساس الذى يعمل فى المدرسة والحكومة والمحكمة ؟؟

من اين جاءت الحكومة والقضاة والجنود ؟ اليس أكثر هؤلاء فاسدين ودون المستوى الواجب ؟ فكيف تتحول هذه العصابات المجرمة الى مجموعة صالحة ، رفيعة المستوى ، عالية فى الأخلاق؟

العالم كله ـ مع الأسف ـ خاضع لهذا المنطق ، حتى فى المستويات العلمية .

ان مدراء البلديات والجامعات ، والمؤسسات العلمية ، والحكام لو كانوا فى الزمن الأول لما استحقوا أقل من الطرد ، بل لكانوا فى السجون ، ولو أرادوا أن يشغلوا وظيفة حقيرة ما استحقوا .

لقد طغت هذه العقلية على الأفكار حتى أصبح الذى يثير مسألة الأفراد يتهم بالرجعية .

يا أصحاب القلوب المؤمنة ، أنتم المجتمع ، فى قسمات وجوهكم وضمائركم وعقولكم يرقد المستقبل الزاهر الذى نؤمله ، فهيئوا نفوسكم تهيئة روحية خلقية ، علمية ، ايمانية ، هذا هو نداء الوقت ، وواجب الساعة ، وجهاد اليوم .

لقد وجدت الحديث عن العالم الاسلامى حديث كل بلد حللته وزرت فيه اخواننا ، وهو حديث كل مجلس حضرته ، ان العالم

الاسلامى حقيقة قائمة تسعى على قدميها ، لا ينكر فضله الا جاهل أو أحمق .

أنا أومن به ، وشاهدته فى الهند ، وباكستان ، وتركيا ، وسوريا ، ومصر ، وأنتم أيها الاخوان جزء من العالم الاسلامى ، اذا كنتم تعتقدون أنه يعيش بغيركم ، وليس عليكم مسؤوليته فأنتم مخطئون ، ولكن أخشى أن كثيرا من الناس يهتمون بكل شيء غير نفوسهم ، وهذا هو الواقع فعلا . أنا أفكر فى العالم ، ولكن أنا كذلك جزء منه ، فلأصلح هذا الجزء . ولكنى أرى كثيرا من اخوانى لا يفكرون فى نفوسهم ، ويعتقدون أن العالم الاسلامى هو كل ما يغاير نفوسهم ، علينا أن نصلح نفوسنا ، وليعتقد كل منا أنه مسؤول ، فاذا صلحت هذه الاجزاء صلح العالم الاسلامى ، ان مثلنا أيها الاخوان ، كمثل ملك أعلن أنه يريد حوضا مملوءا باللبن « الحليب » ، وأنه سيدفع الثمن لكل من يجلب الحليب ، فقال أحد اللبانين : لو أفرغ لبان واحد سطلا من ماء ، فان هذا الماء لا يؤثر فى الحليب الكثير ، فأفرغ سطل ماء بدلا من حليب ، وفكر آخر نفس التفكير ، وهكذا سرت الفكرة بين الجميع ، وجاء الملك فى الصباح فوجد حوضا من ماء .

هذه قصتنا . ان كل فرد منا يقول ، اذا فسدت ، فماذا يضر العالم الاسلامى ؟ وبهذا أصبح كل العالم الاسلامى فاسدا لو فكرتم لرأيتم أن كل حديثكم عن غيركم .

انصفوا نفوسكم أيها الاخوان ، وما لكم وهذه القضايا التى لا تستطيعون خدمتها ، ان الاشتغال بالغير سهل ، ولكن الاشتغال بالنفس صعب ، والانسان يحب السهولة ، ولذلك اندفع العالم الاسلامى كله الى الاهتمام بغيره . هذا تفكير يجب أن يعالج .

أنتم العراق ، واذا كنتم العراق ، فأنتم جزء من العالم الاسلامى ، فيجب على كل منا أن يهيىء نفسه ليكون لبنة صالحة فى البناء .

لنكن فتية مجاهدة ، مؤمنة صادقة ، طاهرة النفس ، واضحة التفكير ، عميقة الجذور ، قوية العاطفة ، فائضة القلب .

فاذا كنا كذلك ، فصدقوني اننا نستطيع أن نغير تيار الفساد.

الأزمة ازمة رجال ، فأين الرجال ؟ وان كثيرا من الناس يحرصون على الحكومات ويعتقدون انها هى المفتاح ، ولكن الحكومة يسيرها الرجال . فمن هم هؤلاء الرجال ، وكيف هم ؟ هذا هو داء العالم الاسلامى فأنتم هيئوا نفوسكم « لمعركة المستقبل » « معركة الأخلاق » و « الاخلاص والتضحية » ، اذا وجد رجل واحد يستطيع أن ينسى نفسه ومصلحة أسرته ، واصدقائه ، وحزبه ، ويستهدف مصلحة بلده ، وأمته ، لاستطاع أن يحدث انقلابا .

كان الجو قاتما ، والعالم الاسلامى يعانى مشكلة عظيمة ، وكان الولاة جائرين ، والجهاز فاسدا والمظالم سائدة ، والحقوق تمتهن ، والناس غير آمنين ، وكان العالم الاسلامى من شرقه لغربه ، ومن شماله لجنوبه ، يعانى مرضا مرهقا . جاء رجل واحد هو « عمر بن عبد العزيز » عرف ربه ، ونسى نفسه ، وذكر اليوم الآخر ، فاستطاع أن يغير هذا التيار ، ويرغم العالم الاسلامى على أن يتجه الى الصلاح ، اين الأفراد ؟ واين من ينتجهم ؟ هل تنتجهم الكليات والمعاهد ؟ لا ، انما يربيهم الايمان ، وتنتجهم العقيدة والأخلاق .

فكلمتى لكم ، أن تهيئوا نفوسكم ، ربوا فيها الايمان والعقيدة ، كونوا مؤمنين بالله واليوم الآخر ومصلحة الاسلام ، كونوا رجالا ، اذا دانت لهم البلاد ، واصبحوا يملكون أزمة الأمور لم يغيرهم الوضع الفاسد عما كانوا عليه ، هذا كان شأن الصحابة ، كانوا ضعفاء فقراء لا يملكون ما يكسون به أجسامهم ، ويشبعون به بطونهم ، فدانت لهم الدنيا وتفتحت لهم الخزائن فما تغيروا .

بقى ابو عبيدة وسعد كما كانا ، وجاء سلمان الى العراق واليا ، فخرج الناس لاستقباله ، فرأوه يحمل على رأسه حملا لرجل على أجره .

ان العالم لم يفسد الا عندما فسد الافراد ، وفقد هذا الطراز الذى تخرج فى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، نحن فى حاجة الى هذا الطراز ، وهو لا يرتجى الا منكم ، من مثل هذا الشباب المسلم ، المؤمن الصادق الذى يوطن نفسه على الشظف والحياة البسيطة ، ان من أمراض الأمة العربية ، هذا التنعم والتبذير ، والعادات القاهرة ، لا يستطيع أحدهم أن يعيش من غير سيارة ، وبيت فخم وراتب ضخم ، ان هذه الأمراض قعدت بأمتنا ، وهذا كان داء الرومان والفرس ، فقد أسرفوا فى المدنية والتنعم ، يدل على ذلك أنه لما زحف المسلمون على المدائن وفتحوها ، خرج « يزدجرد » يحمل معه ألف طاه وألف مرب للبزاة والصقور ، ويقول : انى فى حالة يرثى لها . أخذت هؤلاء فقط .

الى هذا الحد وصلت مدنيتهم ، ولذلك انهارت هذا الانهيار الفظيع . كان الذى يلبس قلنسوة قيمتها دون ٥٠ ألفا يعير ، وكانوا يلبسون مناطق بقيمة ٣٠ الى ٥٠ الف ، مرصعة بالجواهر والياقوت ، فهذه المدنية الزائفة هى التى جنت عليهم ، فخسروا الدولة والشرف ، والمجد والحياة .

فهيئوا نفوسكم للجهاد والدعوة ، واذا قلدتم أمانة ، فأحسنوا القيام عليها ، هذه وصيتى لكم ، وربما لا تقيمون وزنا لها ، ولكنكم ستذكرون ذلك فى المستقبل ، فستذكرون ما أقول لكم « وأفوض أمرى الى الله » .

ان الأزمة ازمة رجال ، وازمة ايمان وأخلاق ، وانى أعيذ نفسى أن أومن بالفكرة القاصرة ، القائلة بتغير الوضع اذا تغيرت

الحكومات والاحزاب ، لقول الله تعالى : ((أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله)) (الى ان قال) : ((الذين ان مكناهم فى الأرض اقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وامروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر (١))) .

انظروا كيف قدم ذكر هذه المحنة ، التى خرجوا منها كما يخرج الابريز من النار ، وخرجوا من ديارهم بغير حق ، حتى أصبحوا رجالا ان مكنهم الله فى الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر .

فاذا لم نقطع هذه المرحلة لا نستطيع ان نصل الى الدرجة التى وصفها الله بقوله : ((الذين ان مكناهم فى الأرض)) وقال تعالى : ((ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)) لم يحدثهم عن الحكومة ، والنتائج الأخيرة ، ولكن رباهم تربية اسلامية عميقة شاملة للاخلاق والتفكير ، حتى اذا نشأت النفوس ، انطلقت الموجة ، وكان ما كان .

اقول وانا مخلص ناصح ، اهتموا بأنفسكم اهتماما دينيا ، خلقيا ، تربويا ، فكريا ، وآمنوا بأنكم أنتم العالم الاسلامى كما قال الشاعر :

وفيك انطوى العالم الاكبر ،

واذا صلحنا صلح العالم الاسلامى واذا صلحت الأجزاء صلحت المجموعة .

اقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

* * *

---

(١) الآية ٤١ من سورة الحج .

ان آباءكم – أيها السادة المسلمون – قد انتشروا في عواصم الجاهلية الأولى ، ومراكزها الكبرى ، يقولون : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام» وخلصوا الأمة الرومية من عبادة المسيح والصليب والأحبار والرهبان والملوك ، وخلصوا الأمة الفارسـيـة من عبادة النار وعبودية البيت الكياني ، والأمة الطورانية من عبـادة الذئب الأبيض ، والأمة الهندية من عبادة البقر ، وأخرجوها الى عبادة الله وحده ، وأخرجوها فعلا من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، والعالم ينتظر منذ زمان ، رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهليـة الثانية ، يهتفون : « الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن ، الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس والاثرة والجشع المادي الى سعة عالم القناعة والايثار والزهد ، ونعيم الروح وطمانينة القلب ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية ، الى عدل الاسلام » .

هذه هي الدعوة التي تهيب بكم يا رجال العالم الاسلامي ، وهـذه الانسانية البائسة تستصرخكم وتستغيثكم على أعدائها . وليس العـالم اليوم باقل ظمأ وأقل فاقة الى الدعوة الاسلامية الصحيحة منه بالأمس ، وانه لا يختلف عما كان عليه في القرن السادس المسيحي ، فهو غني اليوم في كل ناحية من نواحي الحياة ، وفي جميع الحرف والصناعات ، وقـد ضاق بالأمم والحكومات ، وطفح بالاعـلام والرايات ، وفاض بالحركات والدعوات ، وضجر بطغيان الأهواء والنزعات ، وثورة الأغراض والشهوات فالى الاسلام من جديد ..



مطابع المختار الاسلامي